فلسفة التوحيد

من إبراهيم عليه السلام إلى الخاتون

عبد المنعم أحمد محمود

عنوان الكتاب: فلسفة التوحيد

اسم المؤلف: عبدالمنعم أحمد محمود

تنسيق داخلي: ياسمين خالد حسين

تدقيق: صفاء أحمد

تصميم الغلاف : مصطفي نصر

الطبعة الأولى ٢٠٢٥

رقم الإيداع : 30307- 2025

الترقيم الدولي: 978 - 633 - 8329 - 32 - 7

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لا يجوز إعادة طبع أو نشر أو توزيع هذا الكتاب، كليا أو جزئيا أو تخزينه في أي نظام استرجاع، أو نقله بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية، أو ميكانيكية، أو سمعية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو غير ذلك، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف.

تمهيد:

مقدمة في مفهوم الفلسفة:

الفلسفة في عمومها هي البحث عن الحق والحقيقة كما عرفها الحسن البصرى والكندى. فالنظرة الفلسفية يهتدي إليها الإنسان بمداركه البشرية من حيث إنه إنسان مفكر (مقدمة ابن خلدون) (بركات، ١٩٩٠).

ولا مجال لوجود صفات عقلية موروثة في شعب دون آخر، فالناس كلهم سواسية عند ابن خلدون من حيث صفاتهم العقلية وقدرتهم على التمكن من العلوم الطبيعية، ويمكن للإنسان أن يهتدي إليها بمداركه البشرية، بركات محمد مراد (١٩٩٠).

ولكن صُنِّف اليونانيون بأنهم يمتازون بالتفكير الفلسفي دون غيرهم من الشعب العربى مثلًا، أحمد أمين، ولكن لا يميل بركات إلى هذا الرأى فهو يعزى هذا الأمر إلى الظروف البيئية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية المحيطة بالشعب.

ولما كان مثل هذا المذهب الفلسفي يزدهر عند أهل اليونان وذلك في ما قبل الميلاد وبزوغ نجم أرسطو (٣٦٧-٣٢٢ ق. م) ثم سقراط وطاليس (القرن ٦ ق. م) وافتراضهم أن الأرض هي مركز المجموعة الشمسية والشمس تدور حولها، وصادرت الكنيسة أى آراء أخرى غير ذلك، وافتراض أن الأرض مسطحة وهو ما أثبته فيثاغورث أن الأرض ليست مسطحة ولكن كروية بالقياس والتجربة.

قد يكون هذا المذهب الفلسفي الآن قد تغير مع تدهور الأحوال الاقتصادية والثقافية لشعب اليونان، وما تبقى الآن في العالم سوى خطرات فلسفية، ومن المدهش أن مثل هذه الظروف متوفرة الآن مثلًا للشعب الأمريكى ولم يخرج منها مذهب فلسفي منظم، ولكن خطرات فلسفية مترامية على طول وعرض القارة الأمريكية.

امتدح الالوسى وعرج على تفوقهم في العلوم الرياضية والطب والتجارة، بينما ذمهم أبو القاسم القاضي، حيث ذكر أن الله لم ينعم على العرب بشيء من علم الفلسفة (بركات، ١٩٩٠).

واستثنى الكندي والهمداني (بركات، ١٩٩٠)، وأكد على ذلك أحمد أمين (بركات، ٢٠٠٢)، من حيث ضعف المنطق وعدم تسلسل الأفكار بدقة تؤكد كلامه بما ذكره علماء الاجتماع في أواخر القرن ١٩ - ٢٠ عن بدائية العقلية العربية اللامنطقية ليفي بريل، ورأى بن خلدون ابتعاد العرب وافتقارهم إلى العلم والصناعة وأن العقلية العربية تفتقد إلى الروح العلمية، بركات (٢٠٠٢).

ومنهم من تعصب للجنس الآري عن الجنس السامي الذي لا يساير الإبداع الفلسفي، جوتيبيه، ومنهم من يرى أن العرب نقلوا المعارف اليونانية في القرن السابع والثامن الميلادى، مدكور إبراهيم (بركات، ٢٠٠٢) وأنها مجرد تعريب للفلسفة اليونانية، مصطفي عبد الرازق (بركات، ٢٠٠٢).

ونفي عن العقلية العربية التجميع وتأصل فيها الانفصال، جوتيبه، ولكن كما ذكر بركات (٢٠٠٢) أن الصلة بين الله والكون والإنسان موجودة ولم تنتفِ، فهي موجودة في كل الأديان السماوية "ما قبل الإسلام".

ويجب أن نشير إلى أن قدماء المصريين كانوا أول من ابتدع الرياضيات وبرعوا في العلوم الطبيعية الأخرى مثل الكيمياء والطب والميكانيكا واخترعوا الكتابة، وأن البابليين والكلدانيين أول من درس أجرام السماء وأنشأ علم الفلك، فيمكن أن نعتبرهم أول من عمل بالفلسفة العقلية، وبراعتهم في العلوم الطبيعية دليل على ذلك.

مقدمة الكتاب

يحتاج التوحيد إلى مقدمة، من رؤى ومشاهدات بصرية ومادية والنظر طويلًا إلى السماء الصافية في عزلة تامة في مكان منعزل من العالم تناجي فيه رب الأرباب خالق السماء والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والسموات والأرض والكواكب.

هل سألت نفسك: لماذا أنا مسلم؟ لماذا أنا مسيحي؟ لماذا أنا يهودي؟ ولماذا أنا ملحد لا دين لي؟

يولد الإنسان منا على الفطرة، فطرة الله التي خلق الناس عليها، فسرعان ما يسلمه والداه أو يمسحانه أو يهودانه أو قد يكون مسلمًا أو مسيحيا أو يهوديًا ويختارا أن يكون لا دين له أو ملحدًا، وقد يكون الملحد دخل في الإسلام قبل إلحاده ولكن بالوراثة، وقد يكون مسيحيًا أو يهوديًا أيضًا بالوراثة بدون إعداده عقليًا وفكريًا لذلك. وقد يهتدي المشرك إلى الخالق دونما ترقٍ كما فعل إخناتون، وقد يهتدي الملحد إلى الخالق نفسه، أي بالبحث عن الإله الواحد الأحد ولنا في إبراهيم القدوة، أو كما فعل ورقة بن نوفل واهتدى إلى المسيحية بنفسه ثم إلى دين الفطرة.

أو كما اهتدى سلمان الفارسي الذي كان يعبد النار ثم ترقى إلى دين الفطرة، أو كما فعل أبو ذر الغفاري إلى دين الفطرة، وهذا يقودنا إلى أن هناك صنوفًا من البشر- آثرت أن لا تستخدم عقلها وألفته وارتضت بما هي فيه من ديانة أو لا ديانة، لماذا؟!

فالأديان اليهودية والمسيحية والإسلام تدعو إلى الإله الواحد الأحد، غالبية الناس آثرت التسليم والاستسلام إلى مشايخهم أو كبرائهم دونما استخدام العقل، أي وكلوا الأمر إلى مشايخهم يفكرون لهم ويتدبرون لهم، ثم يرجعون الأمر إليهم كما لو كانوا منزلين من السماء.

ومن هنا ظهرت المغالاة والتطرف وتحميل الأديان بما ليس فيها.

وفلسفة التوحيد أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

وكتبه الزبور والتوراة والإنجيل والقرآن، ورسله من سيدنا آدم مرورًا بإبراهيم وعيسى وموسى ومحمد.

وملائكته من سيدنا جبريل وميكائيل وإسرافيل.

يعرض الكتاب المفارقة بين العقل الآري والعقل السامي وتعرفهما على فكر التوحيد.

كما يعرج الكتاب على كيفية ظهور التوحيد على الأرض من خلق الله آدم وحواء والخطيئة التي أطاحت بآدم وحواء ونزولها إلى الأرض، وكيف أدرك الملائكة أن الإنسان سيسفك الدماء، وهل كانت بالأرض مخلوقات أخرى سفكت الدماء قبل الإنسان؟

يتعرض الكتاب لأبناء آدم من بعده وقصة توحيدهم وإشراكهم مع الله آلهة أخرى.

ويستعرض الكتاب بزوغ الحضارات القديمة وما قدمته للعالم الفلسفة العلمية والنظرية، وكيف صب ذلك في تقدم العقل وتفكره وتدبره.

ما فائدة التفكر في خلق السموات والأرض وعلم الفلك وفلسفة التوحيد؟

يعرض الكتاب نبذة مبسطة عن الانفجار العظيم وكيف خلق الكون من مجرات وكواكب ونجوم وأسدمة.

يعرج الكتاب على حال البشرية والأرض وخلق الحياة على الأرض ودور العلم في هذا.

يقدم الكتاب سيناريو لنهاية الكون.

سنناقش بهدوء فكرة الإشراك، وكيف أشرك الناس وأدخلوا آلهة أخرى مع الله.

على كوكب الأرض أكثر أو ما يقارب عشرة مليارات من البشر، ثلاثة مليارات منهم مسلمون وموحدون، فهل كل البشر يستخدم عقله وفكره؟ من الذي استخدم عقله في التنقل بين الأديان؟

يقدم الكتاب مواصفات لهؤلاء الناس وصفاتهم، وكيف يعمل العقل وهو واجب إلهي، ويقدم لنا أمثلة قوية لهؤلاء الناس.

فلسفة التوحيد والتفرد يقدمها الكتاب في أسلوب مبسط وموجز، وهل هناك عوالم موازية لعالمنا ومفتاحها الثقوب السوداء.

ساقني تخصصي في علم الجيولوجيا أن أقضي أيامًا وأسابيع بالصحراء الشرقية والغربية وسيناء، نصبنا خيامنا وأشعلنا نارنا تحت مظلة مجرتنا طريق اللبن في سكون الليل وظلمته، وأوقات كثيرة قضيتها منعزلًا بعيدًا عن زملائي، وحيدًا متفكرًا في هذا الكون، وسرعان ما ظهر القمر وأضاء ليل السكون.

بزغ نجم الحضارة المصرية القديمة، وبزغ نجم الحضارة السومرية بالعراق، وهما نتاج لنهرى النيل والفرات، بزغ نجمهما في اكتشاف الكواكب والنجوم كما سيقدمه الكتاب.

- إخناتون هو سليل الحضارة المصرية.

- وإبراهيم هو سليل الحضارة السومرية.

يقدم الكتاب فلسفة التوحيد لديهما، أي إخناتون وإبراهيم.

كيف كان إبراهيم فيلسوفًا، وكيفية إعداده لأهم مناظرة في التاريخ بينه وبين المشركين.

ما الفرق بين تناول إخناتون الفلسفة في التوحيد وإبراهيم وفكرة الارتقاء؟

يقدم لنا الكتاب أدوات فلسفة التوحيد من تأمل وحكمة وتدبر وعقل في خلق الإنسان.

ما هو الطين الذي خلق منه آدم؛ مكوناته المعدنية وصفاته وأنواعه؟

نشأة الديانة عند قدماء المصريين وفلسفة التوحيد عند إخناتون.

يتناول الكتاب في عجالة علاقة البخور وأهميته في المعابد والكنائس والمساجد والمنازل، واستجلاب الأرواح أو الخشوع والتصوف في العبادة.

تجليات التوحيد في مصر القديمة من خلال الفن المصرى القديم.

إخناتون النبي المفقود المارق أو المهرطق.

يتعرض الكتاب لعبادة آتون الواحد الأحد في عصر الدولة الحديثة، ونهاية آتون.

يتناول الكتاب سؤال: ما الذي منع إخناتون من الترقي في العبادة كما فعل إبراهيم؟

كيف تبدو شخصية إخناتون ودور زوجته وأمه في حياته ومنعه من الترق للمحافظة على الملك.

فلسفة التوحيد في آخت آتون.

الأحجار المقدسة ودورها في بزوغ الحضارة المصرية القديمة.

نختم الكتاب بأرقام في علم الفلك ليبدو للقارئ حجمه في الكون.

أدوات التوحيد

لو لم أكن مسلمًا أو مسيحيًا أو يهوديًا موحدًا، كيف كنت أسعى إلى التوحيد؟

أضع نفسي- مكان واحد مشرك، كيف به أن يسعى إلى التوحيد كما سعى أبو ذر الغفاري وصهيب الرومى من الشك إلى اليقين.

السعى منه (بمجهوده) أي من الباحث عن الحق والحقيقة.

السعى إليه (مساعدته على الفهم) وذلك يكون بالحسنى والموعظة الحسنة "لا إجبار".

ما هي الأدوات؟

في العالم ما يقرب من عشرة بلايين من البشر، منهم ثلاثة مليار مسلم، للتوحيد حلاوة وسحر ورهبة وعدم خوف من أي بشر- مهما كان أو أى دولة مهما كانت قوتها التي يهابها العالم من أجل هذه القوة.

ماذا يفعل التوحيد بالبشر؟

ثلاثة مليار مسلم موحد ولكن صدق فيهم قول رسولنا الكريم "يومئذ كغثاء السيل"، خائفون فعلت الدنيا بهم كل الأفعال وأصبحوا يهابون ويخافون غير الله، كره انبعاثهم وأخافهم مما دونهم.

الموحد قوي وليس ضعيفًا لا يهاب الموت لأنه يؤمن بالآخرة.

الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بالرغم من نحافته وضعفه كان يخرج في صحن الكعبة ويجلس يقرأ بالقرآن ولا يهاب، ألسنا على الحق فلن يضيعنا ربنا، وكان يتعرض للضرب المبرح.

فكر التوحيد

ومن وجهة نظرنا أنه إذا كان العقل الآري قد ألم واستوعب العلوم العقلية الطبيعية بشكل مختلف عن العقل السامي، سواء كان آريًا أو ساميًا، فهما من أبناء آدم الموحد الأول والمؤمن بالله الواحد الأحد، وبالرغم من ذلك فقد افتقد الجنس الآري شيئا فشيئًا إلى فكر التوحيد بالرغم من اجتيازه لمراحل صعبة جدًا متفوقة جدًا في العلوم العقلية الطبيعية عن الجنس السامي، الذي افتقد إلى هذا التفوق ومع ذلك يعلي فكر التوحيد، لماذا؟!

المرجع الوحيد من وجهة نظري هو أن تقدم الجنس الآري عن الجنس السامي هو افتقاد الأخير إلى الحقيقة والعدالة، ولكنه يعرف الحق، كيف يعرف الحق ولا يمارسه ويسعى إلى الحقيقة دون بيان مع تجهيل وتعظيم الجاهل؟

أما الجنس الآري، فيدعم معرفة الحقيقة والسعى إلى الحق ثم مخالفته والتكبر عليه. الملياردير الأمريكي والأغنى في العالم ماسك تمكن من استنساخ نفسه في شخص آخر ينقل إليه كل معلومات الأول إلى الآخر كنوع من الاستمرار وعدم الفناء.

البيئة السامية حتى قبل ظهور الإسلام استسلمت إلى فرد حاكم وحاشية دينية تؤازره وقد تتحكم فيه أو تسايره لمسايرة مصالحها الشخصية، فزادت مساندتهم للحاكم وتضخمه ووصوله إلى درجة الإله في مصر القديمة وأضفوا عليه كل الألقاب التي يخشى منها الأفراد العاديون، ولهذا السبب لم يعمل العقل والعمل بالعلوم الطبيعية وأصبح مقصورًا على المعابد، ودخل الناس تحت مسميات السحر والشعوذة والصدقات فأغدقوا عليهم بأموالهم والذهب لقضاء حوائجهم، ولم يكن يصح للأفراد العاديين إعمال العقل والتفلسف وأصبح مقصورًا على القصر والمعبد، أو القصر والكنيسة، أو القصر والجامع، واكتفى الناس بالتدين المزيف المظهري الفارغ في عمقه ومعناه.

ظهور التوحيد على الأرض

- آدم وحواء.
- الخطيئة.
- كيف عرف الملائكة أن الإنسان سيسفك الدماء؟
- الملائكة موحدون بما فيهم طاووس الملائكة الشيطان وتمرده.
- نزول آدم وحواء على الأرض.
- أبناء آدم سام وحام وآري ويافث كلهم موحدون من نسل موحد.
- أبناؤهم أشركوا مع الله آلهة آخرى ليقربوهم إلى الله زلفى.

نعرف جميعًا قصة خلق آدم وحواء وتنعمهما في الجنة وأن الله أمرهما ألا يأكلا من شجرة، ووسوس لهما الشيطان الخارج عن أمر الله بأن يسجد لآدم مع الملائكة التي تحاورت مع الله في خلق آدم وخوفهم من سفك الدماء بالرغم من عدم معرفتهم بآدم أو الإنسان، ودعوة الشيطان الذي كان طاووس الملائكة: "إنك يا رب خلقتني من نار وخلقت آدم من طين فأنا منزه عنه"، أي الشيطان، ورفض السجود وهو ليس رفضًا للأمر ولكنه تكبر على أمر الله، وسخريته من الإنسان الذي خلقه الله.

سجدت الملائكة ورفض إبليس، وكلهم موحدون بالله، إلا أن إبليس تكبر وأبى فخرج من رحمة الله "فاذهب إنك رجيم" صدق الله العظيم.

نزل آدم وحواء إلى الأرض، ويقال إنه نزل في أرض الهند بعد أكلهما من الشجرة بعد وسوسة إبليس لهما. آدم وحواء أول من ظهر على وجه الأرض من بنى الإنسان الموحدين بالله، أى أول خلق الله من بني الإنسان موحدين، وانتقل التوحيد بالله منهما إلى أولادهما حام وسام ويافث (الفادي والدمشقي، ٢٠٠٥).

هل تساؤل الملائكة مع الله عز وجل "أتخلق فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟"، من أين أتت الملائكة بهذه المعلومة وهل كان هناك خلق آخر قبل الإنسان أفسد وسفك الدماء وهذا سبب تساؤلهم؟

الخلق الآخر (ما قبل الإنسان) وتطوره

لم يخلقوا من طين

خلق الله آدم من طين، فهل الخلق ما سبق آدم لم يخلقوا من الطين، وقد يكون الخلق الآخر هم إنسان الحقبة الباليوثية Paleoithic ثم الحديثة Neolithic، وما بينهما من حقبة متوسطة تؤكده أبحاث الأثريين من خلال دراسة أدواتهم وتطورهم من حيث استغلال

الأدوات الظرانية (زلط: يتراوح قطره بين ٤ مم: ٦٤ مم) والذي وجده بوفير لابيير ١٩٣٤ مع تكوين العباسية (رملى تيلى) عمره متوسط البليوستوسين، أي حوالي واحد ونصف إلى ٧٠٠,٠٠٠ سنة، ويعرض بالمتحف المصري (Lapeire Bouvir, 1934).

أو قد يكون التوحش وغريزة القتل عند الكائنات قبل ظهور الإنسان مثل الديتاصورات التي ظهرت في حقبة الميزوزوى من الترياسيك للجيوراسيك ثم الكرتياسي، أي قبل ما يقرب من مائة مليون سنة والتطور الذي طرأ على كل الكائنات المتوحشة منذ خلقها عبر العصور الجيولوجية المختلفة.

فمنها ما تطور واستمر إلى الآن، ومنها ما اختفى بوحشيته وسفكه للدماء.

بزوغ الحضارات القديمة

السومريون سبقوا الحضارة المصرية بألف سنة.

وقد سبق قدماء المصريين اليونانيين وظهرت براعتهم في بناء الأهرامات التي يرجع تاريخها إلى بداية القرن ٣٠ ق. م، ووحدتهم النظرية العقلية في الألوهية والبعث والخير والشر، وهو ما تأثر به فلاسفة اليونان أمثال فيثاغورس من خلال اتصالهم بثقافات الشرق ونهلوا من معينها.

بزوغ الحضارة المصرية القديمة وتفوقهم في الهندسة (ديورنت ١٨٨٥) (بركات ٢٠٠٢) وما لديهم من حكمة وأخلاق وآداب قدمت للعالم الفلسفة العلمية والنظرية، وظهور حضارات الشرق المختلفة الأناضولية والسورية والآشورية والبابلية والفارسية، كلها صبت في التفكر والتدبر.

في الحضارة المصرية وفي القرن ١٨، خرج من طيبة (الأقصر-الآن) إخناتون بعدما مارس عبادات آلهة كثيرة، وعلى رأسهم آمون – رع عبادة الشمس وشاهد كيف يمارس الكهنة التدليس والتحكم في الحكم وفي العامة. خرج إخناتون يدعو إلى التوحيد أتون في آخت آتون (تل العمارنة الآن بمحافظة المنيا).

أولاد آدم والتوحيد

خلق آدم من طين

مات آدم عليه السلام وتولى الأمر من بعده في عبادة الله وحده ولده "شيث" عليه السلام، ثم وكل الأمر من بعده إلى ابنه "أنوش"، ثم "قينين" ولد "أنوش"، ثم "مهلائيل" ابن "قينين"، ويزعم الأعاجم من الفرس أنه ملك الأقاليم السبعة، بنى المدائن والحصون وبنى مدينة بابل، وقهر إبليس وجنوده وشردهم عن الأرض إلى أطرافها وشعاب جبالها، ودامت دولته أربعين سنة (عماد الدين الفداء، إسماعيل الدمشقى ٢٠٠٥)، فلما مات "مهلائيل" قام ولده "يرد" من بعده، ثم ولده "خنوخ" ولد "يرد"، وهو إدريس عليه السلام، كلهم دعوا إلى الله الواحد الأحد.

إدريس عليه السلام

وهو خنوخ، وكان ثانى من أعطى النبوة من ولد آدم بعد ابنه شيث "عليهما السلام"، أول من خط بالقلم وأدرك ٣٨ سنة في حياة آدم وعاش في بلاد النوبة وأسوان في عصر الدولة القديمة من الأسرات الأولى للدولة المصرية الفرعونية القديمة (عماد الدين الفداء، إسماعيل الدمشقى ٢٠٠٥).

وقد يرجع إليه كل التعاليم البعث والتوحيد والعلاقات الإنسانية كالأخلاق، وهو الفيلسوف الأول للحضارة المصرية القديمة.

نوح عليه السلام

ولما عُبدت الأصنام وشرع الناس في الكفر، بعث الله لهم "نوح"، فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وأمره الله ببناء سفينة في الصحراء ويدعو المؤمنين بالله وحده وأزواجًا من الحيوانات الموجودة على الأرض وأبى ولده، فجاءه الطوفان هو ومن كفر من الناس فأغرقهم ونجا دعاة التوحيد بالله.

ولكن كيف أشرك الناس؟

التفكر في خلق السماء والأرض

التفكر في خلق السماء والأرض هو المدخل إلى التوحيد والبحث عن الحقيقة وخلقهما بالحق. وكأستاذ في الجامعة أدرس لمعلمي المستقبل "منهج علم الفلك" والمتخصصين في الرياضة والفيزياء، فالدارس للرياضة والفيزياء يعتبر مشروع فيلسوف إذا تناول المنهج بالبحث والتفكير والتدبر والنظر إلى السماء والأرض وفي أنفسهم.

وتعمدت في تدريسي لهم أن أدرس علم الفلك في أرقام كي يستطيع الدارس أو المتلقي أن يعي ويتدبر معنى أن خلق السموات والأرض بالحق، ما هو الحق؟ لم أجد منهم استجابة!

كيفية نشأة الكون، وتفسير نظرية الانفجار العظيم أو Big Bang.

Big Bang theory الانفجار العظيم

لاقت نظرية الانفجار العظيم أو ما تعرف بـBig Bang theory لفكرة كيفية تكوين الكون خلال ١٤ بليون سنة تقريبًا، ولكن بقيت اللحظة السابقة للتكوين والظروف المحيطة بها غامضة، وهل كان هناك زمن يسبقها يظل غامضًا.

يشير لمصطلح Big Bang إلى مولد الكون نفسه وأحداثه إلى اليوم. وهذا طبعًا اتفق عليه بعد مناقشات ومجادلات مع علماء الفضاء في القرن العشرين على أجزاء من الثانية في أول مولد للكون.

عالم بلجيكي فيزيائي (1927) George Lemaitre استنتج نتائج من تلسكوب هابل تؤيد اتساع الكون في ١٩٢٧، استنتج أن كل المجرات التي نراها اليوم منفصلة يجب أن تكون بدأت من ذرة وحيدة.

افترض العلماء أن السماء وكل شيء فيها في سبات لا يتحرك ولا يتغير، إلى أن فسرت ملاحظات العالم هابل Hubble ورصده بالتليسكوب، لاحظ أن المجرات ليست ثابتة ولكنها تتحرك بعيدة عن بعضها، وهنا ولدت فكرة اتساع الكون وأدت بالتالى إلى ظهور نظرية Big Bang (Garlick, 2002).

Big bang مولد

أول من استخدم مصطلح Fred Hoyle Big Bang في مارس ٢٨ من عام ١٩٤٩ بينما كان يدافع عن نظريته في أن الكون ساكن لا يتحرك، ضد نظرية Lemaitre التي تعني باتساع الكون.

هولى ناقش فكرته التي تنص على أن كل المادة في الكون نشأت من انفجار كبير وحيد، وكانت غير منطقية ولاقت معارضة شديدة، إلا أنه فيما بعد وجدت نظرية Big Bang موافقة واسعة النطاق كظاهرة كونية ومقدرتها في تفسير الأشعة ذات الحلقية الكونية "الميكروويف" (CMB) Cosmic Microwave Background التي اكتشفت في ١٩٦٥، حيث اعتبرها العديد من علماء الفلك الحجة والشاهد القوي لنظرية Big Bang.

الأحداث الزمنية الكونية (عبد المنعم محمود – علم الفلك ٢٠٠٢)

بداية الزمن: الوحداوية Singlinlarity أو التفرد

١- بدأ وجود الكون في نظرية Big Bang مع بداية الزمن نفسه ببذرة "Seed" وحيدة من Nebula (السحابة السديمية).

٢- فترة التضخم الكوني: سارع الكون في التضخم، متسعًا في كل الاتجاهات.

٣- الكون الأولي: خلال ثوانٍ، أصبح الكون الأولي ساخنًا جدًا، حيث وصلت درجة الحرارة بين ٤ و٦ تريليون درجة، تكونت الجزيئات ثم البروتونات والنيترونات مشكلة أو مكونة الديوتريوم والهيليوم وكميات صغيرة من الليثيوم.

٤- تكوين الذرات الأولية: بعد حوالى ٣٨٠٠٠٠ سنة، برد الكون بقدر كافٍ لربط الهيدروجين والهيليوم مع إلكترونات حرة، مكونًا أول ذرات متعادلة.

٥- مولد إشعاع الميكروفي الكوني CMB: لاحقًا اصطدمت الفوتونات مع الإلكترونات التي أصبحت الآن حرة في الحركة مخلفة CMB الإشعاع الكوني الميكروفي، بقايا من هذه الفترة المبكرة، والتي اكتُشفت كما ذكرنا في ١٩٦٥.

٦- العصور المظلمة Dark Ages: بعد ما يقرب من ١٠٠ مليون سنة، لم يكن بالكون ضوء ولذلك سميت هذه الفترة "الفترة المظلمة". لغز هذه الفترة ما زال غير مفهوم من قبل الفلكيين، وبدون النجوم التي تعرفنا أو تكشف لنا معرفة هذه الفترة المظلمة ستظل هذه الفترة مبهمة.

٧- أول نجوم في الكون: حوالى ١٨٠ مليون سنة بعد الانفجار العظيم، بدأ الهيدروجين والهيليوم يولدان حرارة أو سراجًا، وبذلك ولدت أول نجوم في الكون أو ما يعرف بـ"فجر الكون Cosmic dawn" أو إعادة التأين، حيث إنه وطبقًا للعلماء، استنتجوا أنه عند حوالى ٥٠٠ مليون سنة ظهرت النجوم الأولية (عبد المنعم محمود، ٢٠٠٨).

٨- ظهور المجرات في الكون الفسيح: خلال هذه الفترة بدأت المجرات الصغيرة تظهر داخل المجرات الكبيرة، بعد حوالى بليون سنة من الانفجار العظيم ظهرت الثقوب السوداء عند مراكز المجرات.

٩- منتصف عمر الكون

أخذ الكون في الدوران خلال بضعة بلايين من السنين، وتكونت كسرات مجرات والغاز والتراب الكوني الكثيف مخلفة شبكة عنكبوتية كونية جميلة ما زالت تُرى حتى اليوم.

١٠- مولد النظام الشمسي
منذ حوالي ٤,٥ بليون سنة تكون نظامنا الشمسى. الأرض، وهي الكوكب الثالث في المجموعة الشمسية، اخترنت بعضًا من المياه بداخلها خلال هذه العملية غالبًا من خلال تصادم مذنب.
١١- البشرية والأرض:
﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: ٥١).

لقاء الله مقرون بالعمل الصالح، وعدم الشرك بالله (آخر سورة الكهف).
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠ - ١٩١).

من خصائص عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان ٧٣).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (الفرقان ٦١، ٦٢).

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران ٧).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (إبراهيم ١٩).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ (إبراهيم ٣٢، ٣٣).

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الأنبياء ١٦).

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء ٣٠: ٣٣).

ظهرت في هذا العالم المائي ميكروبات بسيطة دقيقة بين ٣,٨-٣,٥ بليون سنة مضت. وفي النهاية اكتظت الأرض والبحار بمخلوقات عملاقة مثل الديناصورات. وفي النهاية بعد حوالى

٢٠٠٠٠٠ سنة مضت ظهرت أشباه البشرية والبشرية على الأرض محاولة اكتشاف كل شيء حولها، وما زال علماء الفيزياء لا يفهمون بدقة ما الذي يمسك بالكون. هذا يعتمد على تفاصيل الطاقة المظلمة، تظل هي قوة غامضة هائلة غير مقاسة جيدًا.

نهاية الكون

في المستقبل، يستمر الكون في الاتساع حتى الثقوب السوداء سوف يتبخر إلى لا شيء، تاركة خلفها كونًا ميتًا. وقد تتقلب الجاذبية على الاتساع دافعة بالطاقة المظلمة، مسببة أن كل المادة تنهار إلى عكس الانفجار العظيم Big Bang أو ما يعرف بـBig Crunch، أو أن الطاقة المظلمة هي المسؤولة عن تسارع كل شيء بعيدًا عن كل شيء آخر مؤدية إلى Big Rip، حيث يتفكك الكون بعيدًا وما زال الكون غامضًا ونتيجة لهذا الانهيار سوف يرجع إلى البذرة التي بدأ منها point Single.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء ١٠٤).

التقويم الكوني (كارل ساجان) (إبراهيم يحيى، ٢٠٢١)

اقترح كارل ساجان التقويم الكوني يتناول فيه تاريخ الكون من لحظة ولادته حتى الآن. وبما أن عمر الكون ١٣,٨ مليار سنة اختزلها ساجان في مدة عام كوني واحد فقط. يكون الشهر فيه ١,٢٥ مليار عام، وطول اليوم يساوي ٤٠ مليون عام وطول الثانية حوالي ٥٠٠٠ عام، وتجري الأحداث في هذا العام ١٣,٨ مليار سنة كالتالي:

١ يناير، يبدأ الانفجار العظيم.
٢٢ يناير، بداية تكون المجرات.
١٦ مارس، ولادة أول مجرة في الكون.
١٢ مايو، ميلاد مجرتنا طريق اللبن.
١ سبتمبر، ميلاد المجموعة الشمسية.
٧ سبتمبر، أول خلية حية لكائن.
٢٥ ديسمبر، الكائنات العملاقة (الديناصورات).
٣٠ ديسمبر، الانقراض الكبير حوالى ٦٦ مليون سنة.
٣١ ديسمبر، ميلاد الإنسان في آخر ١٠ ثوانٍ تعادل وجود كل الحضارات على كوكب الأرض في المجموعات الشمسية بمجرة درب التبانة، وهي واحدة من آلاف البلايين من المجرات بالكون الفسيح، ويأتي السؤال: لماذا هذا الكون الفسيح ولمن؟

فكرة الإشراك.. من أين جاءت؟

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ (العنكبوت ٢٥).

"قال لهم إبراهيم ناصحًا إنكم قد جعلتم الأصنام والأوثان عبادة تعبدونها من دون الله، وقد جعلتوها سببا للمودة بينكم تتحابون على عبادتها" التفسير الميسر (عائض القرنى، ٢٠١٠).

الناس كان أول أمرهم على الدين الحنيف الذي تركه آدم لأولاده ثم أحفاده ثم أولادهم حتى إدريس عليه السلام ولد آدم، وهي تعد النقطة الفاصلة: "الكبر" أو التكبر.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود: ٢٥ - ٢٧).

وكانت تلك حجتهم في النقاط الثلاث التي على أساسها أشركوا مع الله آلهة يعبدونها بغير حق.

سنناقش بهدوء

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت: ٦١).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٣).

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٤٤).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان: ٢٥).

سبحان القائل عز وجل: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (العنكبوت: ٢٥)، والوثن مثل الصنم، والصنم هو المعمول من الخشب أو الذهب أو الفضة

أو غيرها من جواهر الأرض، وأما الوثن فهو ما صنع من حجارة أو من جواهر الأرض أو من الخشب كصورة آدمي، أما الصنم صورة بلا جثة (تاج العروس ٣٥٨/٩، بركات مراد ٢٠٠٥).

وكانت العرب عبدة أوثان ومقرهم الكعبة، ومن أقدم الأصنام "هبل" على صورة إنسان، وكان مصنوعًا من العقيق الأحمر، ومكسور اليد اليمنى وجعلت له قريش فيما بعد يدًا من ذهب، ومن أقدم الأصنام "مناة"، وقد وضع على ساحل البحر الأحمر بين مكة والمدينة وكان الأوس والخزرج يعظوه. وكذلك ضم "اللات" " والعزى". (بركات مراد، ٢٠٠٥).

ومعنى اتخذتم من دون الله أوثانًا مودة بينكم في الحياة الدنيا، هو نوع من أنواع التسامر بين الأشراف والتفاخر والثراء الفاحش وجهلوا هذه الأوثان المصنوعة من العقيق والذهب وأجبروا أراذلهم وبادي الرأى على عبادتها، وأنهم شعروا أنهم أعلى من في الأرض، ولئن سئلوا: "لماذا اتخذتم الأصنام والأوثان أولياء من دون الله؟"، يردون: "إنما اتخذناهم ليقربونا إلى الله". لم يكن غالبية العرب في الجاهلية ملاحدة ينكرون وجود الله بل كانوا مشركين، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله، ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً ليقولن الله، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون.

العقل

في كتاب "مقدمة لفلسفة العقل" للفيلسوف البريطاني إدوارد جوناثان لو (2019)، يقدم عرضًا تحليليا معمقًا للقضايا الأساسية في فلسفة العقل يعارض بها النزعة المادية الاختزالية (Physicalism) ويطرح بديلًا يقوم على الثنائية غير الديكارتية، مؤكدًا أن العقل كيان غير مادي لا يمكن تفسيره بالكامل بآليات فيزيائية أو بيولوجية. يرى أن الوعي، والنوايا، والقدرات العقلية الفريدة تمثل بعدًا خاصًا للوجود الإنساني، ما يجعل الفلسفة ضرورية لفهم الإنسان إلى جانب العلوم الطبيعية.

ففي محور رئيسي عن الذات والعقل، يناقش مفهوم الذات ككيان مستمر، مقابل للنظريات التي تعتبرها مجرد وهم. ويبدأ "لو" بتحديد ماهية العقل كمظومة من الحالات والقدرات الذهنية مثل التفكير، والإدراك والوعي البشري.

يكشف الكتاب أن فلسفة العقل ليست ترفًا فكريًا بل مدخلًا ضروريًا لفهم الإنسان في زمن التقدم العلمي.

يشدد لو على أن الحفاظ على البعد غير المادي للعقل شرط لفهم الحرية والمسؤولية والأخلاق، وهي تتماشى مع رحلة سيدنا إبراهيم من الشك إلى اليقين من حيث حديثه مع الله "ربى أرنى أنظر إليك"، وهي نظرة عقلية مادية بحتة فيرد الله عز وجل "أولم تؤمن" بوعيك ونظرتك غير المادية للعقل ونواياك الفطرية، يرد إبراهيم: "كلا ولكن ليطمئن قلبي" أي عقلي المادي وغير المادي.

وهذا لم يتماشَ مع إخناتون في رحلته إلى التوحيد، حيث استخدم نظرية العقلية المادية البحتة في جعل الشمس هي آتون الإله الواحد، ولم يرتقِ عقله إلى الجوانب غير المادية مثل وعية الذاتي وإدراكه واكتفى بمشاهداته الطبيعية المادية البحتة.

نعمة العقل التي وهبها الله إلى بني الإنسان ليميزه عن بقية المخلوقات حتى التي كانت تشبهه وسبقته في الوجود على الأرض، قد يكون ذلك لأكثر من ٢٠٠٠٠٠ سنة (العصر الحجرى). خلق الله آدم على الدين الحنيف وأولاده من بعده وأحفاده إلا من تخلف وأشرك مع الله أوثانًا وأصنامًا بغير عقل، وهذا هو المشرك، أما الملحد فهو الذي لا يعترف بوجود الله أصلًا.

ما الذي يذهب العقل والتدبر؟ الخمر والحشيش والكوكايين والأفيون.

المولود يولد على الفطرة ووالداه إما يهودانه أو ينصرانه أو يسلمانه، فيخرج الطفل على ما وجد أبيه وأمه يعتقدانه يهوديًا أو نصرنيا أو مسلمًا أو حتى من عبدة النار في بلاد العجم، أي فارس قبل الإسلام.
ولكن يحضرني هنا رجلان أو ثلاثة؛ صهيب الرومي – ورقة بن نوفل – أبو ذر الغفاري – سلمان الفارسي.

كيف ساقهم عقلهم إلى التنقل بين الأديان باحثين عن الدين والقيم والحق؟

إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات، لمن يا الله؟ لأولي الألباب، من هم يا الله؟

(١) الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم.

(٢) ويتفكرون في خلق السموات والأرض.

(٣) ويقرون "ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك" (آل عمران).

أولو الألباب من صفاتهم أنهم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (الفرقان ٧٣).

والقائل هنا هو الله سبحانه يأمرنا أو يأمر أصحاب العقول أنه حتى إذا أنزلت آيات من ربهم يجب أن يتدبروها ويعقلوها لا يخروا عليها صمًا لا يسمعون وعميانًا لا يرون.

إعمال العقل واجب وأمر إلهي

صهيب الرومي – سلمان الفارسي – أبو ذر الغفاري - ومن قبلهم ورقة بن نوفل

وقد يقول كل صاحب دين: الحمد لله أنني خرجت للحياة بهذا الدين، وهو الذي استاقه من والديه وأجداده، فكيف بالله عليك تعرف أنك على الطريق الصحيح والدين القيم إن لم تعمل عقلك وتتدبر فيما حولك وتنظر إلى أعلى وإلى أسفل من قدمك؟ وقد قالها المشركون من قبلك: إننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، لقد كان صهيب روميًا (مسيحيًا)، وبلاد الروم هي بلاد الشام (سوريا ولبنان)، ثم سُبي إلى مكة، وكان سلمان (أول الفرس إسلامًا) يعبد النار في بلاد فارس (إيران حاليًا)، وكان أهله ينكرون وجود الله وينكرون الخلق ويرجعون ما يحدث في العالم إلى فعل القوانين الطبيعية، وهو اتجاه المادية في الفلسفة الحديثة (بركات، ٢٠٠٥)، وجاء أبو ذر من بلدة غفار على الطريق إلى الشام، وهو من السابقين إلى الإسلام ورابع أربعة "رحم الله أبو ذر يعيش وحده ويموت وحده ويحشر وحده".

أو هم الدهريون "الدروانية" بمعنى الدهر في الفارسية، وهو ما اشتهرت به بلاد فارس في عهد يزدجرد الثاني (٤٣٨ – ٤٥٧ م) من ملوك الدولة الساسانية التي حكمت فارس قبل الإسلام، واستمر في الحكم ٢٥ عامًا حتى فتح العرب فارس (تاريخ الفلسفة -١٩٥٧ في بركات ٢٠٠٢).

ثم ترك سلمان أهله ساعيًا وراء معرفة الدين الحق، فانتقل بين البلدان ليصحب الرجال الصالحين من القساوسة، إلى أن وصف له أحدهم ظهور نبي في بلاد العرب ووصف له علامات ليتحقق منه.

سلمان الباحث عن الحقيقة، عاش وترقى من المجوسية إلى النصرانية ثم إلى اليهودية قبيل ظهور الإسلام، وظل يبحث عن الدين الحق.

أما أبو ذر الغفاري، فكان في جاهليته قاطع طريق وكان شجاعًا يغير بمفرده في وضح النهار على فرسه، فيجتاز الحي ويأخذ ما أخذ، وعلى الرغم من ذلك، كان أبو ذر الغفارى موحدًا حنيفيا، لا يعبد الأصنام، وحينما علم أن هناك من يدعو إلى التوحيد في مكة سارع إلى الإسلام، فكان من أسبق من دخلوا الإسلام.

ورقة بن نوفل كان يقرأ التوراة والإنجيل، قرشي النسب، وكان حنيفيًا موحدًا في الجاهلية، وكان يتبع النبي موسى، وروايات أخرى تقول إنه كان يتبع النبى عيسى بن مريم بنت عمران. دعته خديجة بنت خويلد، زوجة النبى محمد (ﷺ) إلى بيتها فأقر بالنبوة وقال لها: "هذا الناموس الذي أُنزل على موسى".

لم تكن غالبية عرب الجاهلية زنادقة أو ملاحدة ينكرون وجود الله بل كانوا مشركين، قدسوا أصنامهم ليتخذوا منها شفعاء عند الله، وهذا الشرك ينطوي على الإقرار بوجود إله، ألم يكن أبو النبي محمد ﷺ يدعى عبد الله ويوجد على ذلك إثبات في القرآن، مفاده أن قريشًا والعرب كانت تقر بوجود الله (بركات، ٢٠٠٥).

لكن يدل هذا الإشراك مع الله والإيمان به على عقيدة السواد الأعظم من الجاهلين، وكان منهم من لا يؤمن بالله إطلاقًا كما وضحنا آنفًا.

ما هو الدين الحنيف ؟

معنى كلمة حنيف أي الميل إلى الحق، والمائل عن الشر إلى الخير أو عن الباطل إلى الحق.

الدين الحنيف ليس ديانة من ديانات أهل الجاهلية ولم يذكر في القرآن اسم الدين الذي ينتسب إليه الحنفاء، فهي ليست بديانة من ديانات أهل الجاهلية، بل الدين الحنيف صفة لمن نبذ الشرك وميله إلى توحيد الله.

والإسلام نفسه هو تجديد لدين إبراهيم الحنيف، وهو فطرة الله التي فطر الناس عليها وانحرف عنه الجاهلون ومالوا عن الحق، انحرفوا عن الدين الحنيف الدين القيم إلى عبادة الأوثان.

وتحدث القرآن عن سيدنا إبراهيم أنه كان حنيفًا وكان مسلمًا وما كان من المشركين.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ (الروم: ٤٣).

فالدين الحنيف إذًا هي صفة لمن يؤمن بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، منذ أن خلق الله آدم ثم حواء وأولادهما وأحفادهما كانوا جميعًا على فطرتهم التي فطرها الله لهم حنفاء غير مشركين.

التفرد Singularity (الواحد في كل مخلوقاته)

وكما أن كل النباتات التي على سطح الأرض بدأت ببذرة واحدة، والبذرة تتكون من نواة في المنتصف وتدور حولها في مدارات الإلكترونات والبروتونات والنيترونات، فالأرض تتكون من لب الأرض وهو ملتهب وتلتف حوله طبقة الستار الداخلى والخارجى أقل التهابًا ثم القشرة الأرضية المحيطية والقارية والشمس كنجم يتكون من لب وطبقات ثلاث إشعاعية وتيارات حمل والتوصيل ثم غلافها الجوى.

تكاثرت البشرية من نطفة في رحم امرأة وكذلك الحيوانات، ويتم تلقيح البيض في الطيور لينتج أيضًا بيضًا مخصبًا أو زيجوت كما في الحيوانات والبشر.

أي أنه من البويضة المخصبة الوحيدة أنتجت كل البشرية والحيوانات والطيور.

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ (الكهف: ٥١).

ودعانا إلى التفكير في كيف خلقت السموات، كيف خلقت الأرض، بل كيف خلق الإنسان.

وكما وضحنا في نظرية الانفجار العظيم كيف أن السموات والأرض، شاملة المجرات السماوية والنجوم والكواكب والشهب والنيازك، بدأت من بذرة في سديم والسديم يتكون من التراب الكوني والهيدروجين، فهي مخازن تصنيع النجوم من بذرة.

وهنا تستدعى التساؤلات: هل خلقت ٢ تريليون مجرة وفي مجرتنا مثلًا ٢ بليون نجم، والشمس كنجم يدور حولها المجموعة الشمسية ومنها الأرض التي نزل عليها الإنسان، كل هذا الخلق لأجل مخلوق عمره أقل من ٢٠٠٠٠٠ سنة على كوكب غاية في الصغر يدور حول الشمس كنجم بالنسبة للمجرة، ومجرة من ضمن ٢ تريليون مجرة في هذا الكون الفسيح المتسع والذي يتسع شيئًا فشيئًا؟!

هل هناك عوالم أخرى موازية كما ذكرها ستيفن هوبكنز، ومفتاحها أو الطريق إليها هو الثقوب السوداء Black holes.

التفكر والصحراء

الصحراء هي بقعة من الأرض خالية من السكن بل ومن الشجر، وقد تجد بها بعضًا من المرتفعات تضم أراضيها الفسيحة الرمال، وتتكوم الرمال شيئًا فشيئًا وتتكون كثبان الرمال. وقد تجد بها عيونًا لمياه باردة أو ساخنة وتكثر وتنمو حولها الشجيرات، ويأتي إليها بعض من الطيور، ويرتحل إليها البدو الرحل ناصبين خيامهم بالليل تاركين جمالهم التي كانت ترعى وتسعى وراء الخضار ومعهم بعض من الأغنام، وعندما يأتي المساء يجتمعون حول نيران راكية أشعلوها من بعض الحطب المجمع من شجيرات جافة هنا وهناك ويجلسون يتسامرون حول النار مع شيء من الماعز أو الأغنام.

عندما يأتي المساء بعد فراغهم من الأكل والسمر، تهجم عليهم السماء ببروجها وقمرها والكواكب السيارة في وفد يرى الناظر للسماء والمراقب لها الشهب والنيازك ويرقب النجوم ويلحظ أي منها يضيء أكثر وأي منها يظهر أولًا، ويلحظ سيرها ووجودها في مجرتنا؛ مجرة درب التبانة التي تحوى أكثر من ٢ مليار نجم، وهي لا تتبين بوضوح إلا في الصحراء الخالية والنقية والسكون الرهيب والظلام الدامس، وهذا شرط مهم هو الإظلام التام ليتسنى رصد الأشياء المضيئة.

"وبالنجم هم يهتدون" أى يسير البدو في الصحراء مستعينين بالنجوم في تحديد الشمال الجغرافي، والبدوي قوي البنية يمشي مسافات كبيرة يستطيع أن يتسلق الجبال ويصل لأعلى نقطة، فهي بمثابة مرصد للسماء، وهذا يتطلب عينين حادتين، أي بصر حاد جدًا ليرصد ويفرق ويلاحظ الثابت منها والمتحرك في جوف السماء.

تعطيه الصحراء الهدوء والسكينة والبعد عن التلوث بالجو، وإلى الآن فكل مراصد العالم تكون في أعلى نقطة وبعيدة عن البلد كلما أمكن وبعيدة عن التلوث الصناعي والحضاري.

الحضارة السومرية

الحضارة السومرية من الحضارات القديمة المعروفة في جنوب بلاد الرافدين (٤٠٠٠-٢٣٥٠ ق. م) أو ميزبوتاميا mesopotomia بمعنى بين النهرين (حاليًا هي العراق وسوريا وتركيا).

وقد عرف تاريخها من الألواح الطينية المدونة بالخط المسمارى. وظهر اسم سومر في بداية الألفية الثالثة ق. م في فترة ظهور الحيثيين (١٦٠٠ ق. م-١١٧٨ ق. م)، ولكن بداية السومريين كانت في الألفية السادسة ق. م، حيث استقر شعب العبيديين بجنوب العراق وشيدوا المدن السومرية الرئيسية واختلطوا بأهل الشام والجزيرة العربية عن طريق الهجرة أو الحروب عليهم.

وبعد عام ٣٢٥٠ ق. م ابتكروا الكتابة على الألواح الطينية، وظلت الكتابة السومرية ٢٠٠٠ عام هي لغة الاتصال بين دول الشرق الأوسط وقتها.

عرف عن النبى إدريس عليه السلام، والذي جاء اسمه في القرآن وفي التوراة، أنه زامن نشوء الحضارات في الشرق الأدنى القديم، أى بعد وفاة آدم عليه السلام بحوالى ٣١٠ سنوات، وكانت بعثته نبيًا سنة (٤٣٥٠ ق. م).

ولد نبي الله إبراهيم عليه السلام في أور الكلدانية جنوب الأناضول بالقرب من ديار بكر، أي جنوب بلاد الرافدين، ثم هاجر مع أسرته إلى كنعان (فلسطين) ومروا شمالًا بسوريا (بابل) ثم اتجهوا إلى دمشق وبعد ذلك عادوا إلى جنوب فلسطين.

علم الفلك عند السومريين

كان السومريون أول من أسس الحضارات في العراق وفي العالم أجمع، وأول من عرف الكتابة والنحت وتدوين التاريخ والمكتشفات على الألواح الطينية. وقد أثارت الألواح الطينية التي تركها السومريون دهشة العالم، خاصة علماء الفلك.

اكتشف السومريون بعض كواكب المجموعة الشمسية قبل ٦٠٠٠ عام، بينما العلم الحديث لم يتمكن من اكتشاف الكواكب الأخيرة مثل نبتون وبلوتو إلا في العقد الثالث من القرن ٢٠ (العشرين).

وعرف كوكب بلوتو لدى السومريون ونقشوا صورته في إحدى المنحوتات السومرية، كما رسم السومريون بالنحت المجسم الكوكب العاشر الذي لم يكتشف إلى اليوم، وهو الكوكب الأبعد في مجموعتنا الشمسية، وذلك قبل اختراع التلسكوب في عام ١٦٠٠ ق. م، ولم تستطع البشرية رؤية ما هو أبعد من كوكب المشترى.

كما وصف السومريون كوكب أورانوس أو الأخضر المضيء كما أطلقوا عليه، أما كوكب نبتون، والذي يلي أورانوس، فقد أطلقوا عليه الكوكب "الأخضر الأزرق".

ولا عجب أن إبراهيم ﷺ، وهو سليل هذه الحضارة السومرية، كان ينظر إلى السماء كما نظر أسلافه من السومريين وبرعوا في اكتشاف الكواكب الأحد عشر، كما ذكرها يوسف (ع) لأبيه يعقوب (ع)، والشمس والقمر، ولكن اختلف إبراهيم ﷺ معهم في أنه ارتقى إلى رب السموات والأرض.

فلسفة التوحيد عند إبراهيم

إبراهيم ﷺ حنيفًا

يعتبر سيدنا إبراهيم عليه السلام أول فيلسوف على الأرض، الباحث عن الحق والحقيقة.

مولده:

تارخ أبو إبراهيم كان عمره ٧٥ عامًا عندما ولد له ثلاثة من الأولاد هم إبراهيم، وناحور، وهاران. ولد لهاران "لوط". مات "هاران" في حياه أبيه وعلى أرضهم أرض الكلدانيين أو أرض بابل، وولد إبراهيم بدمشق في قرية "برزه".

زواجه:

تزوج إبراهيم من سارة، وهي ابنة أخيه هاران، وكانت عاقرًا لا تلد. انطلق أبوه تارخ ومعه إبراهيم وسارة وابن أخيه لوط بن هاران من أرض الكلدانيين إلى أرض الكعنانيين، ومات أبوه فيها، وكان يبلغ من العمر ٢٥٠ عامًا.

وأرض الكنعانيين هي أرض بيت المقدس والجزيرة والشام وكانوا يعبدون الكواكب السبعة (قصص الأنبياء) (أبي الفداء والقرشي، ٢٠٠٥)، وكانوا يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، ويعملون لها أعيادًا وقرابين، وكان أهل حران أو بيت المقدس يعبدون الكواكب والأصنام، وكان كل من على وجه الأرض في ذلك الوقت كفارًا سوى إبراهيم الخليل وامرأته سارة وابن أخيه "لوط".

إبراهيم عليه السلام فيلسوفًا

كان إبراهيم عليه السلام باحثًا عن الحق والحقيقة، ومما سردناه آنفًا أن أهل الشام دمشق وحران في ذلك الوقت برعوا في رصد الكواكب السبعة وأقاموا لها أعيادًا وقرابين دونما أن يتفكروا من خلق هذه الكواكب في السماء، فذهبت عقولهم بالأعياد والقرابين، بل وعبدوا أصنامًا بالرغم من كونهم برعوا في رصد الكواكب في السماء، فلم يرتقوا إلى من خلقهم.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ (77) فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (79)﴾ (الأنعام).

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩)﴾ (الصافات).

إبراهيم يبحث عن الحقيقة وعن الحق "فنظر نظرة إلى النجوم"، ترقى إبراهيم في رصده لكوكب مضيء وكان يعلم أنه كوكب وليس نجمًا يتلألأ ورآه بعينه المجردة في الصحراء، وكان يأمل أن يكون هذا ربه ولكن سرعان ما تبددت هذه الفكرة، هذا ليس برب فالرب لا يأفل ولا تأخذه سنة ولا نوم، فانتقل إلى القمر المضيء، فلما اختفى قال في نفسه: ربى لا يأفل ولا تأخذه سنة ولا نوم، فلما رأى الشمس بازغةً، أى ظاهرة وكبيرة أكبر من الكواكب وأكبر من القمر وتغمر الأرض بأشعتها، قال: هذا ربي، فلما غربت إلى الغرب واختفت قال: أنا على الفطرة وإن الشمس مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة، وإن الله هو الذي فطر السموات والأرض، وقال إبراهيم: أنا حنيف، أي أعبد الله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ولست من المشركين الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى ليقربوهم إلى الله زلفى.

ولما حاجه قومه قال: لست أبالي بهذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله، فإنها لا تنفع ولا تسمع ولا تعقل بل هي مُسخرة كالكواكب.

إبراهيم عليه السلام ومناظرة قومه:

بيَّن إبراهيم لقومه أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب المنيرة (١) لا تصلح للألوهية (٢) ولا أن تعبد مع الله عز وجل (٣) فهي مخلوقة مصنوعة مسخرة، (٤) فهي تطلع تارة وتغيب تارة، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت: ٣٧) (٥)، فتغيب عن هذا العالم (٦) والرب لا يغيب عنه شيء (٧) ولا تخفى عليه خافية (٨) الله هو الدائم الباقي بلا زوال (٩) لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وضح إبراهيم لأهله أولًا عدم صلاحية الكواكب للعبادة، وقيل عن الكوكب هو كوكب الزهرة الذي يشابه الأرض، ثم ترقى إلى قمر الأرض الذي هو أضوأ من الزهرة وأبهى، ثم ترقى إلى

الشمس الأكثر إضاءة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ (الفرقان: ٦١).

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ (91) مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ (93) فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ (94) قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ (95) وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ (96) قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ (97) فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ (98)﴾ (الصافات).

أقام إبراهيم على قومه الحجة متدبرًا متعقلًا متفلسفًا، أنكر على قومه الأوثان وحقرها عندهم وأنكر خضوعهم إليها، ردوا عليه رد من لا يتدبر أو يستخدم عقله بل رد من سفهاء قالوا ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٥٣) ولم يكلفوا أنفسهم بمعرفة الحق والحقيقة وقالوا وجدنا أجدادنا وآباءنا لها عابدين.

الحجة الأخرى على عدم صلاحية الأصنام للعبادة، قال إبراهيم أنها أصنام لا تسمع، لا تنفع، لا تضر شيئًا.

ولكنهم وجدوا الآباء الجاهلين كذلك يفعلون، ثم أقام الحجة عليهم وتحداهم.

(١) تبرأ من الأصنام.
(٢) تنقص بها.
(٣) فلو كانت تضر لضرتهم.
(٤) أو تؤثر لأثرت فيه، أي إبراهيم.

فوجدوا أنفسهم في موضع لا يحسدون عليه، فهم فعلًا يصنعون الأصنام بأنفسهم ثم يعبدونها، وقال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ (الأنبياء: ٥٧).

وأقسم ليكيدن هذه الأصنام التي يعبدونها بعد أن يولوا مدبرين إلى عيدهم، وتحداهم فلو كانت هذه الأصنام تضر لضرته هو أولًا وهو ما لم يحدث، فبهتوا جميعًا، لقد أثبت صحة ما يقول، ولماذا لم يسلموا في هذه اللحظة التي أثبت لهم فيها إبراهيم كذب ادعائهم وما يعبدون إلا إفكًا؟ أليس فيهم رجل رشيد يعقل ويتدبر؟ فلماذا إذًا إصرارهم على الضلال ونصرهم ما نحتوه ليعبدوه؟ هو الكبر "فالكبر هو سفه الحق وغمض الناس"، فلم يريدوا أن يروا الحق بل أغمضوا عيونهم عنه بالرغم من صحته وحجته الداحضة، فلما ذهبوا إلى عيدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ (الصافات: ٩١)، أي ذهب مسرعًا مستترًا، وجد أصنامهم في بهو كبير وقد قدموا بين يديها أجود أنواع الأطعمة قربانًا إليها، فتهكم إبراهيم عليهم وسخر منهم وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93)﴾ (الصافات)، وكسرها مستخدمًا قدومًا في يديه ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء: ٥٨)، ووضع القدوم في يد كبير الأصنام الذي لم يحطمه ليقيم عليه الحجة ويجعلهم

يتدبرون ويتفكرون لعلهم يرجعون عن ضلالهم ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٥٩)، وهنا تأتي الحجة لتدحضهم بالعقل.

فإنهم لو كانوا آلهة لدفعت عن أنفسها من أراد بها سوءًا، لكنهم قالوا من كبرهم وليس جهلهم، لم يكونوا جهلاء فالذي تمكن من رصد السماء بعينه المجردة ورصد سبعة كواكب (كواكب المجموعة الشمسية) بعينه المجردة ليس بجاهل، ولم يستخدموا أجهزة وهذه براعة في الرصد والترقب في السماء، لأن هذه الكواكب لا تُرى إلا في مواقيت معينة لرصدها وبالأخص في أوقات الليل تبدو ظاهرة وفي الشروق تأمل، ومن هنا جاءت فكرتهم ليجسدوها في صورة إنسان وعبدوها أيضًا.

ولكن من وجهة نظري المتواضعة فهو الكبر الذي يسفه الحق ويغمض العين ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٥٩)، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء: ٦٠) فهو الفاعل ولا غير سواه، ولأنه قال، أي إبراهيم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ (الأنبياء: ٥٧)، ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (الأنبياء: ٦١).

أي لعل الناس يشهدون ضلاله من وجهة نظرهم ويسمعون كلامه وازدراءه للآلهة، أحبوا أن يقيموا عليه الحجة، وهو ما أراده إبراهيم أن يجتمع الناس كلهم، فيقيم على جميع عبدة الأصنام الحجة على ضلالهم وعلى بطلان ما هم فيه كما فعل أخوه موسى وقوله لفرعون مصر.

اجتمع الناس وسألوا إبراهيم: هل أنت فعلت هذا بالآلهة؟ وهنا يأتي التحدي وتظهر الحقيقة والبهتان من قبلهم، ما أنتم تعبدون الأصنام كآلهة وتصدقوهم، قال إبراهيم: فعله كبيرهم الذي وضع المقداد في إحدى يديه ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء: ٦٣)، وأرادوا أن يكيد لهم على أن يردوا عليه إنك تعلم أنهم لا ينطقون، فيعترفون بأنها كسائر الجمادات لا تنطق حتى يرجعوا إلى أنفسهم بالتدبر والتعقل والبحث والحق، ويلوموا أنفسهم على أنهم يعبدون من لا ينطق ولا يسمع ولا يتكلم، مجرد حجارة صنعوها هم بأيديهم ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (الصافات: ٩٥).

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ (الأنبياء: ٦٥)، لقد علمت يا إبراهيم أنهم، أي الأصنام، لا تنطق، ويأتي قول الحقيقة من إبراهيم وهو ما وصل إليه بفعله وتدبره وترقيه من عبادة الكواكب لعبادة الأصنام ثم ترقيه لعبادة الواحد الأحد، أي الحنيفية والدين القيم قَالَ: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67)﴾ (الأنبياء). تستطيع أن تقول إن إبراهيم كان مكلفًا بكسر مذهبين تمثلهما فرقتان؛ الفرقة الأولى هم عبدة الكواكب والثانية هم عبدة الأصنام، وهما يمثلان إشراك الصائبة بالله مع أن معظمهم كانوا غير مشركين في أول الأمر، ثم تطور الأمر من نشأتهم

الروحية الخالصة إلى أن فزعت جماعة عبادة الكواكب ثم نزلوا عنها إلى الأشخاص التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن الإنسان شيئًا (بركات، ٢٠٠٥).

وفي الصائبة يقول لنا الرازي إنهم قوم يقولون إن مدبر العالم وخالقه هذه الكواكب والنجوم، فهم إذًا عبدة كواكب.

ولما بعث الله سيدنا إبراهيم كان الناس على دين الصابئة أى عبدة كواكب وقال ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ (الأنعام: ٧٦)، وعبادة الأصنام أحدث من هذا الدين لأنهم كانوا يعبدون النجوم عند ظهورها "مثل نجم الشعرى" بالليل ولما أرادوا أن يعبدوها في الشروق لم تكن موجودة وبالتالى جسدوها صورًا ومثلًا، فنحتوا أصنامًا عملوا على عبادتها وبالتالى ظهرت عبادة الكواكب، التي تميز بها المشركون أو الصابئة المشركون، ومنهم صنف على الدين الحنيف أو صابئة حنفاء وهم لا فرق بينهم وبين الحنفاء وهم من أتباع إبراهيم.

فكرة الارتقاء

لقد وصل قوم سيدنا إبراهيم إلى البراعة في الفلك ورصد الكواكب والنجوم، ولم يكن لديهم سوى أعينهم الحادة وملاحظتهم لظهور الشمس وغروبها خلال كل أشهر السنة، وهذه استفاد منهم الكهنة فيها في بناء المعابد وسقوط الشمس في أيام محددة من السنة في بقعة أو تمثال معين.

استطاعوا رصد النجم القطبي الشمالي لمعرفة اتجاه الشمال والسير في الدروب ورصد البروج في السماء والقمر ومراحل أطواره. اكتسب أهل الصحراء والواحات بعضًا من هذه المهارات حتى يومنا هذا، فمثلًا مقتفو الأثر كنا في واحة الفرافرة في التسعينات وسرقت منها بعض من الأجهزة، وجاء عبد ربه أبو النور، فلاح من الواحات، وكان عمره وقتئذ يفوق (٦٠) ستين عامًا، وكان يستعان به في اقتفاء الأثر، حيث كان يعرف أثر أرجل الفرفريين والأغراب الذين يفدون على الواحة، وكان حاد البصر، فعند ذهابنا من الواحة إلى البداري كان يجري يسابقنا إلى طلوع أعلى نقطة يحدد الطريق (أرض العجاب، عبد المنعم محمود، ٢٠١١).

أول مناظرة فلسفية في التاريخ

أول مناظرة جرت في التاريخ كانت بين الخليل إبراهيم عليه السلام، والنمرود الملك الجبار المتمرد الذي ادعى الربوبية، وفي سورة "البقرة" آية ٢٥٨ قال الله تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ادعى النمرود لنفسه الربوبية، فالنفس البشرية عندما يمن عليها الله بالخير والحضارة تتكبر ثم سرعان ما تنتكس من كثرة الجهل وقلة العقل والتدبر. النمرود هذا كان ملك بابل، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، وكان أحد ملوك الدنيا الكافرين هو وبختنصر.

استمر النمرود في حكمه ٤٠٠ سنة طغى فيها وبغى وعتى وآثر الحياة الدنيا.

دارت المناظرة الفلسفية في التوحيد على النحو التالى: بين إبراهيم الخليل والنمرود:

- دعا إبراهيم الخليل النمرود إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

- تلقى النمرود الدعوة من إبراهيم مستعينًا بجهله وضلاله وكبره وإنكار الصانع وادعى لنفسه الربوبية.

الدليل الأول على وجود الصانع

- قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

وأتى برجلين قتل أحدهما وترك الآخر، وقال أحييت هذا وأمتُ هذا، فكان قمة في البهتان وانقطاع عن الحقيقة التي أدركها إبراهيم، واستدل على وجود الصانع بحدوث المشاهدات مثل (١) إحياء الحيوانات وموتها (٢) من خلقها وسخرها (٣) وتسيير الكواكب والرياح والسحاب والمطر (٤) خلق الحيوانات التي نراها ثم موتها.

وكان قول إبراهيم الحجة ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾

الدليل الثاني على وجود الصانع

قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ (البقرة: ٢٥٨).

تطلع هذه الشمس المُسَّخرة من المشرق كما خلقها الله وسخرها تدور الأرض حولها كل يوم، واليوم فيه إشراق وغروب حول الشمس.

خلاصة: هو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، في وقت تزعم أنك الذي يحيي ويميت فأت بالشمس في ميعاد شروقها من المغرب.

الذي يحيى ويميت هو الذي يفعل ما شاء وكيفما شاء وقاهر كل شيء ودان له كل شيء، فافعل يا نمرود إن ادعيت الربوبية أنك تستطيع فعل الصانع، فافعل فلست كما زعمت ولن

تقدر أن تفعل بل أنت تعجز عن فعله وأقل من أن تخلق ذبابًا أو بعوضًا ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ وظهر جهله وضلاله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما حاججه وتبجحه وتوقف عن الكلام، وكانت عاقبته أن أرسل الله إليه وإلى جيشه ذبابًا أو بعوضًا بحيث عميت عنهم الشمس، أكلت منهم ما أكلت فتركتهم عظامًا.

أما هذا المتكبر الكاذب الضال المتغطرس فدخلت بعوضة في أنفه فمكثت فيه (٤٠٠) أربعمائة سنة عذبه الواحد القهار بها، فكان يضرب رأسه بالحذاء في كل هذه المدة حتى هلك.

من المشاهدات التي أراها الله عز وجل لإبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

ولكى يرسخ الله عز وجل الإيمان في قلب إبراهيم والثقة في الله وأن الله هو الواحد الأحد عن أدلة وبراهين وحجج يحآج بها إبراهيم الملك النمرود فيما بعد ويزرع الثقة واليقين في قلب إبراهيم ضد من أغتر بنفسه وهو النمرود. وهذا ما بنى عليه سارتر مفهومه للوجودية Existentialism وهي حركة فلسفية تؤكد الوجود الفردى والحرية والاختيار وتتحدى المفاهيم التقليدية للجوهر والوجود، ويفترض سارتر أن الحرية الحقيقية تكمن في قبول الوضع الوجودى لعدم اليقين وتحمل المسئولية التي تأتى معه.

وهو ما قاله الله عز وجل لإبراهيم أو لم تؤمن؟ قال: بل ليطمئن قلبي، وهو اليقين الذي أعطاه الثقة والثبات عند مخاطبة المغتر والمتكبر النمرود.

التأمل والحكمة

التأمل يرقى إلى الإيمان وفي درجات العبودية، وإعمال العقل والتفكر يثبت الإيمان في القلب ويغرس اليقين داخله ولا تغيره تقلبات الحياة بين شدة ورخاء، التأمل لتطهير النفس والروح، وتعتبر الأخلاق هي العنصر الرئيس في تكوين المعتقدات الدينية، وتشكل الحياة العقلية، "جذور العلم" (جوستاف لوبون، حياة الحقائق).

والتدبر هو الوقوف على المعانى والعواقب تفكرًا وتبصرًا وإحاطة وتفهمًا وتدقيقًا وتحقيقًا واستنباطًا وتمحيصًا بقصد الانتفاع والامتثال والتطبيق وتجسيد مراد الله من إرسال الرسل ودعوة الخلق وهدايتهم.

التدبر

وأصل التدبر هو التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، وتفعيل الوظائف الروحية للقلب، والوظائف الفكرية والأملية للعقل البشري، قصد حصول العبرة والعظة والانتفاع.

وهو تحديق ناظر القلب إلى المعاني والشواهد، وجمع الفكر على تأمله وتعقله، والنظر في عواقب الأمور، فالتدبر والتأمل والتعقل يرقى إلى الحكمة، والحكمة علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية، فهي علم نظري غير آلي، والحكمة أيضًا هي هيئة القوة العقلية العلمية المتوسطة بين الغريزة التي هي إفراط هذه القوة، والبلادة التي هي تفريطها، وتجيء على ثلاثة معانٍ: الأول الإيجاد والثاني العلم والثالث الأفعال الظاهرة كالشمس والقمر وغيرهما، وهي أيضًا بتعلم الحلال والحرام، وهي العلم مع العمل، وهي وضع الشيء في موضعه بلا حشو، وهي تمنع صاحبها من الأراذل، وأحكم الأمر أي أتقنه ومنعه عن الفساد، والحكيم هو شخص عاقل يرجح الأمور نحو الصواب بما امتلكه من خبرات عبر تجاربه في الحياة ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ صدق الله العظيم (البقرة: ٢٦٩).

خلق الله آدم من تراب (طين)

فما هو الطين؟ الطين يتكون من معادن الطين، وتمتاز معادن الطين بتواجدها على هيئة حبيبات يقل قطرها عن ٢٥٦/١ مم، بحيث إذا اختلطت بالماء تعطى مواد تتفاوت في درجة التشكل.

وكيميائيًا تتكون من سليكات الألومنيوم المائية أو الماغنيسيوم، والتي تفقد الماء عند تسخينها وتعطى مواد تتحمل عند درجات حرارة مرتفعة. وتشكل معادن الطين الجزء الأساسى من التربة.

تتكون معادن الطين كنواتج لتعرية معادن الفلسبارات (هي سليكات البوتاسيوم والألومنيوم) والميكا (وهي سليكات الألومنيوم المائية) والمعادن الحديد والتي تدخل في تركيب صخور الجرانيت والبازلت وهي صخور جوفية وبركانية على الترتيب.

أما عن مجموعة المعادن المكونة لمجموعة معادن الطين، فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع سائدة أشهرها (سمير عوض، عبد المنعم، ٢٠٠٧)، (عبد المنعم محمود، ٢٠٠٧):

- كاولينيت (Kaolinite): وهو من أوسع معادن الطين انتشارًا في الطبيعة، ويمتاز بلونه الأبيض وصلابته ووزنه النوعي القليل، ومن خواصه أنه يمتص الماء بشراهة عندما يكون جافًا، وعند تسخينه يفقد الماء الممتص على سطحه عند ١١٠°م، بينما يتم طرد الماء الداخل في تركيب المعدن عند ٤٠٠-٥٢٥م. ويعتبر مصدًار للألومنيوم، وتركيبه الكيميائي هو سيليكات الألومنيوم.

- إيليت (Illite): تركيبه الكيميائي يتشكل من سليكات الألومنيوم والبوتاسيوم المائية. له نفس خواص الطين الحرارية، ويعتبر من أكثر معادن الطين تواجدًا في الطفل والحجر الطيني، ويتواجد في التربة. ويتكون معدن الإيليت من عوامل التعرية المختلفة للسيليكات، خصوصًا الفلسبارات، ويتكون أحيانًا نتيجة لتحلل بعض معادن الميكا التي تتواجد في الصخور النارية الحامضية. (عبد المنعم، علم المعادن).

- المونتموريللورينيت (Montmorillonite) أو السمستيت (Smectite): معدن المونتموريللونيت وتركيبه الكيميائي سليكات الألومنيوم والحديد والماغنيسيوم والكالسيوم والصوديوم، يمتاز بشدة امتصاصه للماء عن الكاولنيت فالإيليت، ويزداد حجمه الأصلى إلى أضعاف أضعاف عند وضعه في الماء. ويتكون المونتموريللونيت نتيجة لتعرية الصخور النارية القاعدية مثل البازلت والجابرو (عبد الرحيم، عثمان، ١٩٧٦) الجزء الأول. وهو نتاج ارتباط ذرة السيليكون مع ذرة الأكسجين ارتباطًا متشابكًا قويًا في وحدته مرنًا في هيئة هشة إذا ما أدخل عليه الماء، وسهل تشكيله.

وسبحان القائل: (١) خلقناكم من طين لازب (٢) خلقناكم من تراب (٣) خلقناكم من صلصال كالفخار.

عندما يعجن النحات أو بائع الفخار الطين الذي استجلبه من أسوان، وكان يأتون بطين أسوان لأنه عند عجنه يمكن عمل عجينة الصلصال منه (الطين اللازب) والتي تضفي عليه نوعًا من البلاستيكية المطاطة التي يمكن تشكيلها إلى أى شكل، وطبعًا يتم العجن بالماء، ولشدة شراهة الطين للماء فهو يزيد من حجمه أضعافًا، ثم يتركه يجف ثم يدخله النار ليفقد جزءًا كبيرًا من الماء ويتصلد فينتج عنه الفخار مثل الأوانى الفخارية (القلل، الزير، آنية الطواجن والكوبايات)، وسبحان من خلق آدم من مادة التراب أو الطين اللازب أو الصلصال.

يشبه الطين في مواصفاته كثيرًا من مواصفات الإنسان:

- تركيبه الداخلي يحوي الماء وإذا فقده يجف وينشف، أي الطين.
- وأيضًا الإنسان تحتوي خلاياه الداخلية على الماء، وعندما يتعرض للعطش يصاب بالجفاف وينشف جلده ويتشقق مثل الطين، ونستطيع أن نلحظ هذا بوضوح مع الفلاح المصري في الأرض الزراعية في ربوع مصر، خاصة منطقة الواحات المصرية، حيث إن التعامل مع الطين باستمرار، فيمتص الأخير الماء من الفلاح وتتشقق يداه وقدماه كما يتشقق الطين عند جفافه (أرض العجاب، عبد المنعم محمود، ٢٠٠١).

فلسفة التوحيد عند إخناتون

نشأة الديانة عند قدماء المصريين

وقبل أن نقترب من إخناتون وفلسفة التوحيد في عصره، نعرج قليلًا على ما هي ديانة قدماء المصريين وتغيرها من الدول البدائية.

نشأت الديانة في مصر القديمة على التأمل والتفكير الخيالي في المظاهر الطبيعية، فرأى المصري القديم الجبال التي تحف بوادي النيل من الجانبين وأطلق عليها "جب". ظن المصري القديم أن الأرض تطفو على ماء أزلي أسموه "نون"، وهو أصل الحياة الأولى، كما أنه مصدر ولادة الشمس كل يوم وينبع النيل منه، فكان نون الماء الذي يجري في أسفل الأرض كما كان الماء يحيط بالعالم وهو "أوقيانوس".

الشمس تولد في الأفق الشرقي من ذلك المحيط. والسماء تعلو الأرض في شكل وعاء مقلوب أسموه "نوت"، وتخيل المصري القديم للسماء أربعة أعمدة تحمل أثقالها، ولأجل التناسق الهندسي تخيل أسماءً أخرى تحت الأرض وتحت نون اسموها "نونت" (محمد علي كمال الدين، الحضارة المصرية القديمة، ١٩٥٩).

وتصور المصري القديم إلهًا يقف ثابتًا على الأرض يحمل بذراعيه السماء أسموه "شو" إله الهواء. وقد تخيل المصري القديم السماء امرأة منحنية "نوت" تعتمد على أطراف أصابعها وقدميها، أو بقرة تتدلى من بطنها النجوم. ونظر المصري القديم إلى السماء فلاحظ نجوم الشمال متلألئة براقة قد تنغمس في الأفق ولكنها لا تختفي ولا تتلاشى ولا تتعب، فكان شأنها شأن الروح التي انتصرت على الموت واستمرت في حياتها الأبدية، ما جعلهم يسمون ذلك الجزء من السماء قرب أفق الشمال دات"، وهو مقر الموتى الذين يلحقون بنجوم القطب الشمالي التي لا تهلك أبدًا، وهناك حقول خضراء تحيا فيها هذه الأرواح، وبتوالي العصور انتقلت منطقة "ذات" هذه من الجزء الشمالي من السماء إلى تحت الأرض وأصبح مدخلها من الغرب، وذلك لأن الشمس تموت كل يوم في الغرب وتولد من جديد في الشرق، فلا بد أن الموتى كانوا يشاركون الشمس حياتها المتجددة الدائمة (إيمان الجمال، ٢٠٢٠).

ديانات المصرى القديم

"الكا" و"البا"

كل فرد يمتلك كيانًا روحيًا يسمى "كا"، وهي تقابل الذات في الإنسان، وتولد معه وتعتبر جزءًا مكملًا لكيانه، وقد اهتم الأفراد في مصر.القديمة بتوفير جميع التجهيزات الجنائزية من أجلها وأطلقوا على المقبرة "بيت الكا".

ومن الكيانات الروحية "البا"، والتي اعتقد المصري القديم أنها تفارق الجسد لحظة الموت، وصورها على هيئة طائر يحمل رأسًا بشرية.

تصور المصري القديم أن الإله الخلق خلق البشر.من جزأين أساسيين، هما المادة أي الجسم الطبيعي الذي يقبل الفناء والتحلل، والثاني جوهر الحياة أو الروح ومستقرها السماء بعد الموت بينما الجسد للأرض.

وبحلول الموت يفترق الجسد والروح مدة زمنية ثم تحل الروح في الجسد مرة ثانية يوم الدفن لكي ترشده في رحلة العالم السفلي، ومن هنا يأتي اهتمام المصرى القديم بالحفاظ على الجسد بعد الموت وتجهيز المقبرة التي تحمل اسمه ومشاهد وتعاويذ سحرية تضمن له الاستمرارية بالعالم الآخر (إيمان الجمال، ٢٠٢٠).

وجود "الكا" و"البا" في التراث المصري القديم، وفي تصويره "البا" وهي ملازمة للمتوفى، يؤكد أنه يؤمن بخالقهما، وهو إله الخلق، أي يؤمن بالتوحيد، فمن أين استقى هذه المعارف إلا عن طريق نبي أو رجل صالح كالنبي إدريس "خنوخ" في عهد الدولة القديمة، وانتقلت مع التراث المصرى القديم عبر الدولة الوسطى والحديثة.

ما دور البخور في كل الأديان مع الأرواح؟

تجد في المعابد البوذية البخور يطلق في جو من الصفاء والخشوع، وتجد في الكنائس أيضًا البخور وإطلاقه، كما تجده في المساجد، فما علاقة البخور بالأرواح المغادرة؟

في الحضارة المصرية قبل حتشبسوت (الأسرة الثانية عشرة) كانوا يستجلبون البخور من بلاد بونت (الصومال)، ولما جاءت حتشبسوت استجلبت الأشجار نفسها وزرعتها بمصر لأهمية إطلاق البخور بالمعابد والمقابر وما له من علاقة قوية لاستحضار الأرواح التي فارقت الحياة سواء في كون موازٍ أو بالسماء، فهي فكرة صوفية موجودة في كل الأديان.

اهتمام المصري القديم ببناء مقبرته وجعلها تبدو في أحسن وضع، يؤكد أنه إنسان قدري يؤمن بالآخرة والبعث، وهذا لب التوحيد والبعد عن الشرك الذي أقحموه فيه الكهنة لكى يحافظوا على مكانتهم وتعاويذهم السحرية.

فالملحد لا يؤمن إلا بالمادة أو الجسد الفاني ولا يؤمن بالروح، فهذا يثبت أن هذا التراث والتجليات التوحيدية كانت موجودة سلفًا قبل إخناتون.

حكِا "السحر"

قسم المصري القديم سكان العالم إلى بشر وآلهة وأموات، ولم يكن هناك فرق بينهم، فكان الآلهة والأموات أرفع مكانة من البشر، كما يظهر في كتاباتهم الدينية، ولكن ذلك لا يمنع سيطرة البشر عليهم. ويعمل الآلهة بقوة السحر (حكا)، وبواسطتها يخلقون المخلوقات وينظمون الكون، وتمكن الرجل الدنيوي بقوة السحر من الحصول على قوة خارقة وسعادة كما نرى في نصوص الأهرام التي ترجع إلى الأسرة الخامسة، وترجع في أصلها إلى ما قبل الأسرات، وتصف الملك أوناس الذي مات حديثًا ووصل للسماء ويتقدم الآلهة ويطبخها ويأكلها كما يأكل الأضاحى ليكتسب سحرها (حكا) لنفسه.

فالمصري القديم كان لا يعتمد على قدرة الآلهة المطلقة، ولكن يحاول إرغامها على التخلي عن قدرتها. فيهيمن عليها بالسحر ووسائله بمعرفة بعض كلمات القوة السحرية التي تشل قدرة الآلهة أو بمعرفة سر اسم الإله، كما تردد في النصوص الدينية "إنى أعرفك وأعرف اسمك" وقد بقى إلى يومنا هذا.

إله الشمس "رع"

لقب الملوك في مصر القديمة بأبناء الشمس، وكان المصري القديم يعتقد أن فرعون ابن مجد للشمس وصورتها المجسمة على الأرض، وكثيرًا ما نجد أسماء الملوك مقرونة بـ "رع"، ابتداءً من الأسرة الرابعة حتى الحديثة، مثل بب ما عت رع "أمنحتب" الثالث وتحتمس الثالث "منخير رع" وسيتى الأول "ماعت رع"، وحين يتوفي الملك يلحق بأبيه رع في السماء، حيث يحكم معه، وقد ورد في قضية "سنوحى" من الدولة الوسطى وصف موت الملك أمنمحات الأول.

عبادة أوزوريس

سمى المصريون القدماء الإله "أوزوريس" اعتقادًا منهم أنه هو روح الحياة الخضراء، وهي حياة الزرع، منذ أن كان بذرة فتحيا وتنمو ثم تموت ثم يأخذ منها بذرة فتعود مرة أخرى للحياة. وكان هذا الإله يُسمى في آسيا أحيانًا باسم "تموز" وأحياناً باسم "أومنيس"، وفي غرب آسيا كانوا يرمزون للحياة المتجددة بشجرة يزرعونها كل عام احتفاءً بها. وفي مصر آثروا أن يؤمنوا بأن "أوزيريس" لا يتمثل في القوة الحياتية التي تعطيهم القوت فقط في الدنيا بل وفي الحياة الأخرى، ورمزوا له بشجرة تخرج من الأرض السوداء وتخرج منها الحياة المخضرة وسنابل القمح، وهي تنبت من جسد أوزوريس.

آمون

آمون هو إله طيبة، عاصمة الدولة، من الأسرة ١١-٢١، ولم يكن في الدولة القديمة سوى إله خامل لمعبد قرب أرمنت وهو "منو"، وعندما أسست الأسرة ١١ الدولة الطيبية الأولى، أصبح معبد آمون معبدًا للأسرة المالكة وحل آمون محل "منتو" على رأس الآلهة، فاتخذ مع رِع لفظ "آمون رِع" طبقًا لمذهب عين شمس، وهي منطقة عين شمس الحالية في شرق القاهرة، ويعنى "آمون" "الخفي"، وكان يتمثل في هيئة إنسان على رأسه خوذة أسطوانية تحمل ريشتين طويلتين مستقيمتين، وكانت زوجته "موت" وابنه " خنو".
وارتفع شأن آمون رِع في الدولة الحديثة، وأصبح معبد آمون "الأقصر والكرنك" أكبر المعابد المصرية. وكان جميع الملوك يدعون بنوتهم للإلة آمون، ويرى ذلك في غرفة الولادة بمعبد الأقصر، حيث صورت ولادة الملك أمنحتب الثالث.

عبادة آمون في الدولة الحديثة

كما ذكرنا آنفًا أن عبادة آمون في الدولة الحديثة ازدادت لدرجة أن كهنة آمون أصبحوا حكومة داخل حكومة البلاد، وكان كاهن آمون الأكبر صاحب الكلمة الأولى في مصر. وانتقل الحكم من رمسيس الثاني عشر إلى حريحور، كبير كهنة آمون، وأسس الأسرة ٢١.
ترجع عبادة آمون إلى الدولة الوسطى، ومنذ عهد أحمس الأول، مؤسس الدولة الحديثة، أخذت عبادة آمون في الازدياد وازدادًا تبعًا لها سلطة كبير الكهنة وأتباعه من رجال الدين.

الكاهن الأعظم والملك

كان الملك يختار كاهن آمون الذي كان له ديوان وحاجب وناظر للدار وحارس للغرفة وسكرتارية وكتبة وخدم، فهو شخصية عظيمة يختاره الملك بنفسه، وإذا ما تولى الكاهن الأعظم منصبه أصبح يتحكم في وحى الإله وفي سلطة الملك، وفي عهد أمنحتب الثالث أصبح الكهنة يشكلون خطرًا حقيقيًا على الدولة، فقد جمعوا بين السلطات الثلاث الدينية والسياسية والإدارية.

هذا الأمر دفع أمنحتب الرابع (أخناتون) إلى الدعوة لعبادة آتون الإله الجديد ليحد من نفوذ كهنة آمون، ولكنهم استعادوا نفوذهم بعد ثورة إخناتون عليهم مباشرة وازدادت سلطتهم حتى انتهى الأمر أخيرًا إلى أن تولى العرش الكاهن الأعظم في نهاية الأسرة العشرين.

الفن المصري القديم وتجليات التوحيد في مصر القديمة

تميز المصري القديم بتفوقه في عنصري الفكر والروح، وهما العنصران اللذان يكونا الحضارة، تاركًا أعظم نماذج للفكر الأكثر رقيًا.

تجلت نمذجة الفكر في أعمالهم الهندسية الضخمة، والتي ضرب بها المثل في الزمان القديم والحديث (إيمان الجمال، ٢٠٢٠).

تأثر الفكر المصري القديم بالعقيدة تأثيرًا كبيرا ظهر في إنتاجه للكتب مثل كتاب الموتى. تعتبر هذه الكتب كتبًا فلسفية غاصت في أعماق عقيدة المصري القديم وفي حياته في العالم السفلي بعد مماته. صورت رحلة المتوفى الخيالية في العالم السفلي مكتشفًا سر الخلود. تجلت في أعماله الفنية داخل جدران المقابر ومتغلبًا على الفناء، مصورًا الحساب والعقاب والبعث ووزن القلب وجلية الحكم والمحكمين والقرار بأعماله الطيبة والشريرة في الحياة الأبدية حياة ما بعد الموت ومصاحبة البا معه بعد الممات والكا قبل مماته.

بدأت الدولة الحديثة ببداية الأسرة ١٨ حتى نهاية الأسرة ٢٠، واختص الأسلوب الفنى في المرحلة الأولى من بداية الأسرة ١٨ امتداد لفن التحامسة.

وفي مرحلة ما قبل العمارنة، تميز الفن بظهور رموز شمسية في نقوش ونحت يسود فيها أسلوب مدرسة منف التقليدية، أي فن التحامسة.

وفي مرحلة ما قبل العمارنة، تميز الفن بظهور رموز شمسية في نقوش ونحت يسود فيها أسلوب مدرسة منف التقليدية، أي فن التحامسية، أما في فترة حكم إخناتون، والتي يطلق عليها المدرسة الآتونية (العمارنة)، وشهدت انتقال إخناتون إلى المدينة الجديدة آخت آتون (حسن سليم، ٢٠٢١).

إن عقيدة قرص الشمس أو آتون، والتي تمتد فيها الأيادي إلى الأرض، لم تكن اختراع إخناتون بل كانت نواة هذه العقيدة موجودة سلفًا عن ملوك سبقوه في عصر تحتمس الثالث وأمنمحوتب الثانى (حسن سليم، ٢٠٢١).

ومن التجليات الدينية التي ارتبطت بالخلود، حيث كان المصري القديم ينظر إلى الموت على أنه مجرد امتداد للحياة. اعتقد المصري القديم في السماء وفي الحياة التي يحياها المرء بعد موته، تتوقف على اهتمام المصري القديم بالشعائر الدينية والاعتناء بها، والبحث عن الخالق بدت من النصوص والصور الممثلة في البرديات والتوابيت، وكتب العالم الآخر التي تركها لنا المصري القديم، مثل هذا الإرث الفكرى تمثل من تفاسير لبدء الخليقة وهو أمر بدا غامضًا ومعقد بنى عليها أساطير الخلق ودور الإله شو في عملية الخلق وانفصال السماء عن الأرض (بردية شو بالمتحف المصري قاعة ٢٤ بردية رقم ٢٣٥) (إيمان الجمال، ٢٠٢٠).

برزت تجليات الشعائر الدينية التي تبنتها الأسرة الرابعة حتى الأسرة التاسعة عشر- سواء بالنقش أو النحت أو التصوير وستظل خالدة على نبات البردي أو الأحجار الجيرية والنارية الجوفية والبركانية، ودوَّن المصري القديم الأساطير والتعاليم الدينية والأخلاقية وهي ليست من فراغ، ولكن لا بد أن يكون بينهم رجال صالحون أو أنبياء تعلموا منهم الأعمال الطيبة والشعائر الدينية، وأن هناك إلهًا خالق السموات والأرض (قد يكون إدريس أو خنوخ) عليه السلام.

بدأت هذه التجليات منذ ما قبل الأسرات، وتبدو تجلياته ورسوماته ونقشه على الأحجار الجيرية والجرانيت فيما يعرف بالفن الصخرى Rockart، ورسم إنسان ما قبل التاريخ البيئة التي يعيش فيها، وهي بحيرات المياه العذبة بالصحراء، والحيوانات الأليفة مثل الجاموس والغزال والزراف والفيلة، والحيوانات المفترسة كالأسود، ودونها على جدران الكهوف المتواجدة بالهضاب المحيطة بالبحيرات، والتي كان يقطنها، فهي في مكان مرتفع يمكنه من رصد كل الحيوانات حول البحيرة أسفل الهضبة.

سكن المصري القديم أو إنسان ما قبل التاريخ الصحراء الغربية منذ ما يقرب من ١٢,٠٠٠ سنة أقل أو يزيد، وهي الفترة التي تعرف في التاريخ الجيولوجى بـ"الهولوسين Holocene"، وكان المطر يسقط بغزارة حينئذٍ، ومع تغير المناخ وندرة الأمطار، اضطر لهجرة الصحراء ونزل إلى نهر النيل الذي كانت تكثر به الأحراش وتغطي السهل الفيضي فيه ولا تسمح بزراعته، ومع تغير المناخ قل الماء وظهر السهل الفيضي للنيل الذي مكن المصري القديم من السكن وزراعته وصنع أدواته الفخارية وعمل البرديات من نبات البردي.

اهتم الفن المصري القديم بإبراز التجليات النفسية والروحية التي تجسد البقاء والخلود. واختار الفنان المصرى القديم الشكل الهرمي والمسلة، وكتب أسماء الملوك ليتجلى عليهم البقاء والخلود أيضا.

ومن التجليات والسمو في الفن المصري القديم؛ ارتباطه بالدين والفكر والفلسفة من خلال تعلمه مما سبق من تراث الفن المصري القديم، ما مكنه من إبراز فنه بطريقة محسوسة دونما محاكاة لما حوله من الطبيعة.

الكهوف والتوحيد

من أين أتت كلمة كهف؟

جاء ذكرها في سورة "الكهف" في آيات تُتلى، وأكثر ذكرها وتلاوتها يوم الجمعة من كل أسبوع، منذ ما يقرب من ١٤٠٠ سنة، أي منذ نزول الوحي بالقرآن، ومفادها أنهم فتية آمنوا بربهم الواحد الأحد، وهو ما كان غريبًا لما دونهم من الحكم والمحكومين الذين اضطهدوهم، فما كان منهم إلا أن خرجوا خارج البلاد واحتموا في مأوى أو فجوة بعيدة عن أعين الناس، ومكثوا فيها ٣٠٩ سنوات، محتفظين بأجسادهم التي تواجه الشمس من الشرق ثم تواجهها من الغرب، وكانوا يتقلبون يمينًا وشمالًا.

فكان الكهف لهم بمثابة shelter أو حماية داخل صخور الحجر الجيري.

فكان الكهف دائمًا ملاذًا للفارين بدينهم أو حتى الفارين من العدالة، كما في أقاصى الصعيد، والذين يسمون "المطاريد"، ودام ذلك حتى أواخر الخمسينات من القرن العشرين، فغالبًا كانوا يقطنون كهوفًا واسعة بالهضاب الجيرية الموجودة على طول نهر النيل، غالبًا بني سويف والمنيا وأسيوط وسوهاج.

وهو يبدو كنقطة سوداء في قلب بقعة بيضاء للناظرين من بعيد، وسرعان ما يتكشف عندما تقترب منه، ويقع في مكان عالٍ على انحدار شديد وشاق بصعوبة بالغة تصعد إليه، ولذلك اختير من قبل ما يقطنون به، يستطيع من بداخله مشاهدة أو يكتشف المكان تحته وحوله ولا يستطيع أحد من الأسفل ملاحظته، ولذلك اختير كمأوى للفارين بدينهم أو حتى مأوى للمطاريد.

كيفية تكوين الكهوف في الأحجار الجيرية

تتكون الأحجار الجيرية، التي يرسبها البحر في ظروف شحيحة من ثاني أكسيد الكربون، حيث يفيض البحر على اليابس بعمود من الماء يرتفع لأكثر من ١٨٠م، وكان هذا في عصر الأيوسيين، أي ما يقرب من ٨٠-١٠٠ مليون سنة مضت، وأدى إلى دخول البحر المتوسط إلى داخل أراضينا جنوبًا حتى أسوان وترسبت معه الهضاب الجيرية المتاخمة لنهر النيل والمقطم وهضاب بالصحراء الغربية في واحة الفرافرة يطلق عليها هضبة "القس أبو سعيد" وهضبة "أبو منقار" و"الجارة"، والتي يصل ارتفاعها إلى أكثر من ١٠٠ م فوق سطح البحر مكونة من كربونات الكالسيوم النقي.

فلسفة المكان

اختيار المكان له اعتبارات كثيرة منها: عالٍ/ الوصول إليه صعب/ انحدار شديد / محمٍ / ليس مقفلًا / به فتحات للتهوية / تدخله الشمس / فراغ كافٍ / سقف بطول الإنسان العادي أو أكبر / هادئ / جدران مستوية / يتيح إشعال النار / للتدفئة وعمل الطعام.

الطبوغرافية الكهفية

- عالٍ كفاية في الهضبة.
- يصعب الوصول إليه من سطح الأرض إلى أعلى وذو انحدار شديد.
- ليس له صعود أو طلوع إلا من ناحية واحدة.
- فراغ كافٍ/ سقف عالٍ نسبيًا بطول الإنسان.
- له فتحة واحدة.

المعيشة:- Subsistence

- ليس مقفلًا/ به فتحات تهوية/ تدخله الشمس / يتيح إشعال النار للتدفئة والشوي.
- الماء يمكن استجلابه من أقرب بئر أو من النهر.
- الطعام يمكن شراؤه أو تدبيره من الصيد.
- الحماية.
- الاختباء
- يتيح فرصة المشاهدة لأى كائن يتحرك بالأسفل.

التصوف Medetation

أتاح ارتفاعه داخل الهضاب أن يكون أقرب مكان للسماء، حيث يمكن مشاهدة النجوم بالليل والقمر وبزوغ الشمس وغيابها، وهذه هي مقومات التصوف في العبادة.

يستوجب التصوف الانعزالية للخشوع والتفكر في ملكوت السماء والأرض، والتواجد في أقرب مكان للسماء، وهو تواجد الكهف في ربوة عالية، كما في كهف العذراء بالمنيا وكهف أبو محرق بأسيوط وكهف حراء المرتفع عن الأرض.

اللجوء إلى الكهف كان بغرض حرية الاعتقاد والتعبد والخوف من بقية القوم الذين يدينون بدين مخالف أو يعبدون أصنامًا ويشركون بالله، أو قد يكون الفرار من الحاكم الرومانى كما في قصة العذراء والمسيح وقصة أصحاب الكهف.

عبادة آتون الواحد الأحد

الظروف السياسية لمصر في عصر الدولة الحديثة

عصر التوسع الخارجى

كان يسود مصر عصور من الضعف والفوضى والذل في عصر الوسيط الثانى بانتهاء عهد الدولة الوسطى حوالى ١٧٨٥ ق. م، وسقطت الأسرة ١٢ حين كثر تطلع كبار الموظفين وقواد الجيش وكل ذى سطوة إلى عرش البلاد، إما بالقتل أو الخلع ليحل محله آخر، واشتد النزاع بين حكام الأقاليم والقصر من جهة، وبين حكام الأقاليم بعضهم بعضًا، والنتيجة الحتمية أن سقطت البلاد في يد الهكسوس حوالى ١٧٢٥ ق. م.

عبادة آتون

تمتد عبادة آتون إلى ما قبل عهد إخناتون نفسه، ففي عهد أمنحتب الثالث حفظ لنا شعر في آمون رع معتبرًا إياه الشمس، وسمى "رع خبر رع وحورس المسن وآتون"، ويوضح أنه آمون نفسه وخوم وبتاح، فيجمع كل صفات الآلهة في إله واحد، وهذا لا شك مقدمة للوحدانية. وحين اعتلى أمنحتب الرابع عرش مصر كان في الحادية عشرة، ودلت على ذلك صورته المحفوظة بالمتحف البريطاني، وساعدته أمه في الحكم مع بعض المختصين.

بدأت الثورة الدينية لأمنحتب الرابع وهو في السنة السادسة من حكمه في طيبة، وتم ذلك عن طريق:

- إهمال معابد آمون رع وعبادته.
- كتب أنه الكاهن الأكبر لإله "رع – حورس المبتهج في الأفق، في اسمه شو الذي هو آتون"، وتم ذلك قبل أن يبلغ الخامسة عشرة من عمره.
- وتحدى كهنة آمون بأن ذكر فيه اسم إله الشمس الجديد كاملًا.
- بدأ في إتمام بعض المعابد التي أنشأها أبوه وأعدها للإله الجديد بعد تغيير النقوش والأسماء المنحوتة على الجدران بإزالة اسم آمون.
- سببت أعماله هذه احتكاكًا بكهنة آمون بطيبة، وكان لهم نفوذ وسلطان وقوة لا يستهان بها.
- نقل عاصمة ملكه من طيبة إلى أخيتاتون (أفق آتون) في مكان لم تدنسه أى عبادة من قبل.
- غيَّر اسمه من أمنحتب الرابع إلى إخناتون (المقيد لآتون).
- نظام حياته كان قائمًا على البساطة والصراحة وعدم التقيد بالعادات الموروثة مع احتفاظه بوسائل الرفاهية التامة والتجديد.
- كتبت أسماء الإله الجديد (آتون) في أول عهده بطيبة داخل خراطيش ملكية كبيرة، أكبر من خرطوش الملك نفسه.
- نقشت العبارة "رع" حورس الأفق، المبتهج في الأفق، في اسمه شو الذي هو آتون.
- صور إخناتون الإله بقرص الشمس (كما كان حورس يحمل قرص الشمس على رأسه وممثلًا رع وحورس) تبرز من أسفله الحية التي تمثل الملكية، دلالة على قوة الإله أو الملك فيما يختص بالموت، وهنا اندمجت مع رمز الحياة البهيج، ويتدلى من قرص الشمس أشعة كثيرة تصل إلى الأرض وتنتهي بأكف تقدم بها الحياة (عنخ) وتتقبل العطايا من المدبح.

وفي السنة العاشرة من حكمه، زادت الآتونية تطهرًا وسموًا، ولم يكن ذلك عن طريق شكل اسم الإله آتون، بل غيرت ألقابه التي أصبحت "رع الأبدى"، حاكم الأفق المبتهج في الأفق في اسمه (رع الأب الذي أصبح آتون).

- وحدت عبادة آتون الآلهة جميعًا في اسم آتون.
- أمر إخناتون جنوده بجمع جميع أسماء الآلهة الأخرى جميعًا من الآثار، خاصة اسم آتون.
- أمر إخناتون جنوده بتحطيم تماثيل آمون من المعابد.
- شوه إخناتون اسم أبيه أمنحتب الثالث بكشط اسم آمون منه.
- منع إخناتون لفظ إله في صيغة الجمع (نثرو)، وذلك لتناقضها مع عقيدة الوحدانية التي دعا إليها الدين الجديد.

أفق آتون (تل العمارنة)

أقام إخناتون في مدينته الجديدة، وهي الآن تل العمارنة بمحافظة المنيا، وكانت تكنى بإقليم الأرنب (عادل محمد نصر الدين، ٢٠٢٤) أو الإقليم ١٥ من أقاليم مصر.العليا، وأقام عدة معابد أحدها تمجيد لأسلافه تحتمس الثاني والملكة "تي" وآخر لزوجته نفرتيتي وثالث لابنته (باكت آتن)، أما أكبر المعابد فهو المعبد الرئيسي في المدينة كان للإله آتون، وكانت الطقوس الدينية تؤدى في وضح النهار وفي مكان مفتوح غير مستور، وهذا على النقيض مما كان يسير في معابد الآلهة الأخرى التي كانت قدس الأقداس في مكان مظلم ومغلق ومستور وبعيد عن الأنظار.

ووُجدت ترانيم منقوشة على جدران مقابر عظماء الدولة في الجبل الشرقي من تل العمارنة، ومنها استُدل على أن آتون هو إله الرحمة والخير. مجدت الديانة الجديدة جمال الطبيعة، وهكذا كانت العبادة والديانة الجديدة تمجد آثار الله على مخلوقاته جميعًا وقدرته في خلق المظاهر الطبيعية المختلفة.

اختلفت ديانة آتون عن ديانة الشمس القديمة بالرغم من أن كلتيهما عبادة الشمس، ديانة آتون خير ومحبة وسلام، وخلت معابد آتون من ذكر القوة الهالكة للإله رع كما كانت تصورها ديانة آمون.

- خلت ديانة آتون ومقابر إخناتون من صور الشياطين المخيفة التي كانت تصورها الديانة القديمة بأنها تعترض طريق الميت في العالم الآخر (هيمنة الكهنة).
- انمحت تعاويذ السحر والأحجبة.
- نقشت دعوات يتوسل بها صاحب المقبرة ليستطيع رؤية آتون في شروقه ليعبده بدلًا من الصور والنصوص التي كانت تصور حياة الميت في الآخرة.
- كان إخناتون يتوسل لزوجته نفرتيتي أن تمنحه عند حضوره وحبها عند خروجه.
- صورت مناظر الملك والملكة وبناتهما معًا يقومون بتقديم القربان في فناء المعبد تحت أشعة الشمس المضيئة.

- صورت منظره وهو مطل من شرفة قصره يمنح صاحب القربان الهدايا أو يتقبل الجزية الآتية من الخارج.
- اختفى اسم أوزوريس من جدران مقابر تل العمارنة، وأسماء الآلهة الأخرى للموتى.
- اكتفت ديانة آتون بأن يُسمح للميت بالخروج من ظلام مقبرته كل يوم ليشاهد شروق الإله، وفيه تتوقف سعادة الميت في الآخرة على رضاء الملك.

غادر الهكسوس مصر على يد أحمس حوالى سنة ١٥٨٠ ق. م، والذي أسس الأسرة ١٨ وبدأ بها عصر الدولة الحديثة، وتكونت الإمبراطورية المصرية، وهي وحدة أفريقية آسيوية تتزعمها مصر بجيشها القوي المنظم ويقوده الفرعون، وتضم هذه الوحدة الأفروآسيوية مصر تتزعمها ومعها شمال السودان وفلسطين وسوريا. وحافظ المصريون على عقائد وتقاليد البلاد الأخرى ولم يمسوها، وحفظ معظم حكام هذه البلاد هذا الجميل، وحين هدد الحيثيون النفوذ المصري في هذه الأقاليم، حذر حكام الأقاليم إخناتون ونبهوه إلى الخطر الداهم والمرتقب، وناشدوه إنقاذ الموقف، بل وأسفوا على أن تلك الوحدة بينهم سوف تنهار.

بدأت فعلًا الوحدة في الانهيار إثر الثورة الدينية التي أشعلها "إخناتون" وانهمك في التسبيح لمعبوده الجديد. اتجه إخناتون نحو التوحيد في العبادة وآمن بإله واحد لا شريك له تمثل في قرص الشمس "آتون" الذي يرسل أشعته الذهبية على كل ما في الكون، حاملة الحياة والضياء.

قضى إخناتون أيام حكمه في محاربة "آمون"، إله الدولة القديمة، وفي القضاء على نفوذ الكهنة، أي كهنة آمون، وسلطتهم الطاغية، وقضى أيام حكمه أيضًا في التبشير والدعوة للدين الجديد. وبينما كانت الدولة نفسها مهددة بأخطار من الخارج والداخل كان هذا يتطلب منه تعبئة كل القوى لمواجهة خطر الحيثيين القادم.

لقد كان هذا الدين الجديد ما هو إلا مظهر لاتساع أفق الفكر عند المصريين، كما كان أول دعوة في التاريخ للتوحيد، ولكنها لم يكتب لها البقاء، وذلك لتذمر الشعب وسخط رجال الجيش ومقاومة رجال الدين القديم المتمثلة في كهنة آمون (مختار: ١٩٧٦).

نتج عن عدم اهتمام إخناتون بشئون حكمه أن فسدت الأداة الحاكمة وأساء الموظفون استخدام سلطاتهم. ولم تمضِ سنوات بعد وفاة إخناتون حتى اعتلى الجندي القديم والمحارب "حور محب" عرش مصر، ووجد أن الأجدى لمصر أن تصلح شئونها الداخلية وتقضي على الفساد المنتشر بالبلاد، فأصلح البلاد بقوانين صارمة ضاربًا على أيدى العابثين، وعبَّد بذلك الطريق أمام خلفائه ليستعيدوا مجد مصر (مختار، ١٩٧٦).

النهاية لآتون

رغب إخناتون في أواخر حكمه وبتأثير قد يكون من الملكة "تي" الوالدة في أن يصلح أموره مع كهنة آمون، وكانت هذه المحاولة تبدو سببًا في خصامه مع زوجته نفرتيتي التي انفصلت عنه واعتكفت في قصر في جنوب مدينة إخيتاتون، وسمت "حت آتون"، وحدث خلاف بين الأسرة الملكية.

اختار إخناتون على أثر هذا الخلاف "سمخ كارع" شريكًا له في العرش وأرسله إلى طيبة ليفاوض كهنة آمون في الصلح!

ويبدو أن توت عنخ آتون ابنه اتبع والدته نفرتيتي في قصرها، ويبدو أن نفرتيتي وأعداءها من المؤمنين نادوا بتوت عنخ آتون ملكًا بعد موت سمنخ كا رع، وأقام بعدها توت عنخ آتون ثلاث سنوات في تل العمارنة وظل مخلصًا لعبادة آتون، ولسبب غير معروف هجر تل العمارنة إلى طيبة وارتد عن عبادة آتون وأظهر خضوعه لآمون وغيَّر اسمه إلى توت عنخ آمون.

عاش توت عنخ آمون ست سنوات أخرى في طيبة ومات ودفن في وادي الملوك في القبر الملكي الذي عثر عليه فيه سليمًا في مصر، وهذه المصادفة خلفت عليه شهرة ما كان يستحقها.

سؤال:

ما الذي منع إخناتون من الترقي من عبادة الشمس بعد أن وحد الآلهة في إله واحد؛ أن يرتقي لعبادة الله الواحد الأحد رب الشمس والكواكب كما فعل الخليل إبراهيم. طفولته مع أمه "تى" وتعليمه خلال ١٥ سنة حتى اعتلا عرش مصر، هي اللغز!

العبادت الأخرى للمصريين القدماء

ولم تكن عبادتهم للشمس والنيل فقط، بل عبدوا كل صورة من صور الحياة؛ سواء نبات مثل النخيل وأشجار الجميز واللبخ والتين والعنب.

قدس المصريون كثيرًا من الحيوانات والطيور، وكان يجدون في كل منها صفة من صفة الآلهة، فمثلًا:

الحكمة: أبو منجل (لأنه يستطيع التقاط الديدان من الأرض دون أن يراها).

القوة: في الثور.

الكبش: جعلوا منه صورة للإله حتوم إله الخلق (بقرون ممتدة جانبية).

التمساح: عبدوا التمساح في صورة الإله سبك.

وهنا يبدو التساؤل

هل عبد المصريون الحيوانات لذاتها أم لأنهم وجدوا فيها صفة من صفات الله كالحكمة والقوة.

- أنوبيس: وهو أحد آلهة الموتى، ويتمثل في شكل رجل له رأس ابن آوى، وهو إله التحنيط عند المصريين.
- حتحور: يمثل آلهة الجبانة وحيوانها المقدس البقرة أو امرأة لها رأس بقرة أو أذن بقرة فقط، وتحمل على رأسها قرنين بينهما قرص الشمس، وقد شبهت بإيزيس.
- جحوتى: (توت أو تحوت) إله الحكمة في دمنهور والأشمونيين، ويتمثل على هيئة أبي منجل أو قرد، وكان إله الكتابة.
- ست: رب الرعد والعواصف (إله أمبوس قرب قوص).

رمز الحدب والظلام، وهو قاتل أوزوريس إله الخير والخصوبة وعدو حورس. وكان يتمثل في رجل له رأس حيوان يشبه الكلب وفم طويل وآذان واقفة وذيل منصوب (وهل هو إدريس عليه السلام).

كان إلهًا للوجه القبلى كله فيما قبل التاريخ، ثم صار خصمًا لأوزوريس وحورس ثم اتحد مع "بعل"، إله الهكسوس، في مدن الدلتا. وعادت عبادته في الظهور في الأسرة ١٩، وزوجته كانت نفتيس.

شخصية إخناتون

أنجبت الملكة الأم "تي" لزوجها أمنمحات الثالث، ابنها الأكبر تحتمس، ليكون وليًا للعهد وتقلد كبير الكهنة في مصر-العليا والسفلى وكبير كهان بتاح بمنف. وبعد وقت قليل أنجبت الابن الأصغر أمنحتب الرابع، وبعدها أنجبت ٥ بنات.

نشأ الأبن الأصغر مدللًا محبوبًا، فكانت نشأته وتربيته غامضة مجهولة (شريف شعبان، النبي المفقود، إخناتون، ٢٠٢١).

كان ضعيف البنية رقيق الجسد مهزوز الصحة، ولهذا لم يكن معدًا لمستقبل عسكري واعد مثل أبيه أمنمحتب الثالث وأجداده العظام. عاش إحدى عشر-سنة حياة سعيدة خالية من المسئولية في قصره في طيبة يلعب ويتعلم ويشارك أباه بالحكم، وأوقات كان يبحر مع والدته "تي" في بحيرة القصر.

نشأ في بيئة نسائية ناعمة لأخواته البنات الخمس ووصيفات وجواري القصر، فاعتكف بعيدًا بين ينابيع القصر وأشجاره. مالت نفسه نحو السلام. صب كل تفكيره في التأمل وإطلاق روحه للتحليق في عالم ما فوق الطبيعة، جعله هذا يبحث عن قوى عليا تسيطر على تلك الطبيعة وملجأ لتطهير روحه ونفسه. وجد أمنحتب الرابع في نفسه ميلًا كبيرًا نحو العقيدة الشمسية! عقيدة الشمس المرتكزة بهليوبوليس وخاله كان كبير كهنة رب الشمس وذا مرتبة كبيرة ضمن كبار كهنة آمون في الكرنك، وهو ما أثر على ابن اخته أمنحتب الرابع.

تقلد أمنحتب الرابع عرش البلاد وأصبح كبيرًا للكهنة خلفًا لأخيه تحتمس الذي توفي في سن صغيرة. كان شابًا مرهفًا يتطلع إلى السلام لا يقوى على أية مجابهة عسكرية خارج البلاد. وكان سلطان كهنة آمون يتنامى ولم يقوِ أيضًا على مجابهتهم ومقاومتهم، وأدرك الجميع أن البلاد تسير من سيئ إلى أسوأ مع قدوم هذا الشاب (شريف شعبان، ٢٠٢١).

صعد أمنحتب الرابع العرش، وهو عمره ما بين العاشرة أو العشرين، دون دليل مؤكد.

- حافظ على التقاليد الملكية مثل من سبقوه من أبيه وأجداده، دونما تغيير.
- حصل على ألقابه الملكية المعتادة، ودل ذلك على مهادنته لبقية المعبودات، وعلى رأسه آمون، بالإضافة إلى رب الشمس رع.

واستمر كبير كهنة آمون يمارس نفوذه ويحافظ على سلطانه ومكانته في معابد الكرنك ومعه رواده وشيعته.

نقطة التحول Turning point

حكم أمنحتب الرابع بعد استقرار الأمور نسبيًا وخلال خمس سنوات من حكمه استدعى تأملاته القديمة التي ترعرع عليها وهي:

- تقديس الشمس.
- اختياره لأحد مظاهرها وهو المعبود "آتون" القديم.
- أقام مجمع معابد بالقرب من الكرنك له وأطلق على أكبرها بالمصرية القديمة "جم با آتون" أي "مقاطعة آتون الساطع".
- وظهر على ذلك المعبد على شكل رجل رأس صقر مثل "رع حور آرختى" المعبود الشمسي.
- ثم أخيرًا ظهر في هيئة قرص الشمس ذات الأشعة المنتشرة والتي تنتهي بأياد بشرية.
- ما زالت تظهر أطلال هذا المعبد، وتظهر بها "أحجار التلاتات".

نفرتيتي

كانت فتاة جميلة صغيرة، وكانت من عامة الشعب، آمنت بما آمن به زوجها الملك وتحمست له.

وهكذا فجأة أصبح الطفل حاكمًا لأقوى بلد في العالم آنذاك. كانت مصر.تؤمن بآلهة مختلفة وكثيرة مثل باقي البلدان من حولها، وكان أحد أهم الآلهة يسمى "أوزوريس"، وكان ملكًا على العالم السفلي. وكان يحاكم أرواح الموتى وكانت تجلس بجانبه زوجته إيزيس وابنهما حورس الذي كان له رأس صقر، وكانت حاتحور آلهة السماء كما أوضحنا وسردنا سابقًا، أما رمز الحق فكانت امرأة تضع ريشة في شعر رأسها.

وكان لكل مدينة إلهها الخاص، وكان "خنوم" الذي يرسم برأس كبش، والذي يعتقدون أنه خلق أول إنسان من طمي النيل، وكان يعبد في جزيرة الفنتين وكان الإله "بتاح" يعبد في منف.

كان الطفل المصري يجد دون شك صعوبة كبيرة في تذكرهم.

ولكن هناك إله واحد يعرفه الجميع في كل مكان هو "آمون رع"، إله الشمس، أهم الآلهة وأقواهم وأعظمهم رهبة. مع مرور الزمن استقر في مصر.أناس جاءوا إليها من بلدان مختلفة، ومنهم الرقيق ومنهم من أتى بنفسه، وكلهم أتوا مصر بآراء وأفكار جديدة ولغات جديدة.

محور التحول "الملكة الأم تي"

كانت "تي" تتحدث مع ولدها أمنحتب الرابع عن إله يسمى "آتون"، وهو إله من آلهة الشمس مثل الإله "آمون". كان الإله الجديد مثل آمون يحمي ويهتم بالذين يعبدونه ولكن بدون تقديم الضحايا، وكان يفضل السلام على الحرب.

إعلان الحرب على كهنة آمون

عندما أصبح أمنحتب الرابع ملكًا، كان من أوائل أعماله التي قام بها عندما أصبح "فرعون" مصر هو إعلانه أن الإله الجديد "آتون" هو أعظم الآلهة على الإطلاق (ايندلامونت ميدو كروفت: هبة النيل: تاريخ مصر القديمة، ترجمة علي فخري).

كان أمنحتب الرابع نفسه كبير كهنة الإلة الجديد آتون، وغيَّر اسمه من أمنحتب (آمون مطمئن) إلى اسم إخناتون (مجد آتون) من أجل تثبيت إيمانه بالإله الجديد.

وهنا يأتي السؤال: من أين استقى قدماء المصريين معلوماتهم عن البعث والخلود والحساب والعقاب والنفس والروح والشر والخير والحياة الدنيوية والحياة الأبدية ما بعد الموت والسكن في الحياة في بيوت من طين في الشرق، والسكن الأبدي في بيوت حفرها وبناها من الحجر الجيري في الغرب؟ ومن أين تعلم أن الحياة الأبدية هي ما بعد الموت، لذا زين واهتم بمقابره ورسم عليها كل ما يحتاجه في سفره إلى الآخرة، وهي الحيوات الفعلية وليست الدنيا بمفهومها الزائل؟

كيف عاش المصري القديم دنياه يتحضر للآخرة؟ وهذه تعاليم ربانية أخبرهم بها الله عن طريق الرسل، أغلب الظن أنها كانت في خلال عصر الأسرات الأولى من الأسرة الأولى إلى الرابعة، وعن طريق نبي الله إدريس أعاد إليهم فكر التوحيد لله والبعث والخلود في الآخرة.

غضب کہنہ آمون

بمجرد أن أعلن إخناتون إيمانه بالإله الجديد، وكان هو كبير كهنة آتون، غضب كهنة آمون ودهشوا وربما خافوا قليلًا من تطور الاحداث بمصر، لماذا؟

لأنهم، أي كهنة آمون، كانوا يتمتعون بمركز هام وهم الذين يختارون الفرعون الجديد. ولم يجرؤ أحد على تحديهم. لم يكتفِ إخناتون بقفل معابدهم وأن يبطل عبادتهم، بل أمر أيضًا بعزل الكهنة ومحو اسم آمون أينما كان.

واتجه الناس في مصر القديمة كافة إلى المقابر والمعابد بل تسلقوا مسلة حتشبسوت ليزيلوا اسم آمون. ولكن لم تتغير قلوب أهل البلاد بالرغم من ذلك وظلوا متمسكين بآلهتهم القديمة التي نشأوا على عبادتها.

وقفزت التساؤلات بينهم من هو آتون؟ ولماذا؟ لأنه كان محرمًا عليهم إقامة تمثال له أو عمل صورة تمثله، وكل ما كان هنالك هو الرمز الذي اختاره إخناتون له وهو قرص الشمس الذي تتدلى منه الأشعة.

أقول طيبة

أضحت طيبة خرابًا وبلدًا مقفرًا بعد تخريب المعابد وكهنتها غاضبين وأهلها غير راضين ولم تكن مناسبة لإنشاء دين جديد.

اختيار تل العمارنة

ولهذا اختار إخناتون مكانًا جديدًا على شاطئ النيل، وفي منتصف المسافة بين طيبة وبين الدلتا، قرر أن يشيد فيه المدينة الجديدة من أجل "آتون" معبوده، وأن يتخلص من الدولة العميقة الحاكمة، وهم الكهنة الذين يتمتعون بالجاه والسلطان ويسيطرون على الشعب.

فهل فعل إخناتون ذلك من أجل التوحيد أم من أجل التخلص من كهنة آمون وسيطرتهم الفعلية على البلاد؟

أنهى العمال عملهم بين التلال، وقطعوا الأحجار ونحتوها في تكوينات المنيا (تكوينات المنيا تتميز بالحجر الجيري الناصع البياض المكون من حفريات Alveolinid، وهذه الحفرية تميز العصر الأيوسيني مع تواجد لجلاميد من السيليكا (سعيد، ١٩٦٧ .Abdelmoneim, M) (201، وهو مختلف عن تكوين طيبة بالأقصر، حيث الأخير أسفله ويتكون من حجر جيري وفلنت وحجر جيري طيني وأسفلها الطين، وأقاموا المنشآت الخشبية والمعابد والقصور التي توسطتها الحدائق.

أقيمت بيوت صغيرة من اللبن للعمال وأعلنوا الانتهاء من المدينة.

بمجرد الانتهاء من المدينة أبحر إليها إخناتون وزوجته نفرتيتي وبناته الثلاث الصغيرات ورجال البلاط والخدم، وسميت المدينة "أخت آتون"، وكانت ممتدة لمسافة ثمانية أميال على طول نهر النيل، وحددت من الشمال والجنوب والشرق والغرب بلوحات كبيرة موجودة إلى يومنا هذا (رحلتي إلى تل العمارنة).

استمرت المدينة هادئة، لم يكن بها كهنة حقودون ويعكرون صفو وأحلام إخناتون. وكان الملك يسير هو وزوجته وبناته يركبون العربات ويسيرون في طرقات المدينة الجديدة، وهذه لأول مرة في التاريخ الفرعوني يظهر فيها فرعون مصر وعائلته كأفراد ويتصرفون كأفراد عاديين.

ولكن في خضم هذا الهدوء والسعادة، كان في بلاط الملك خونة وهم موضع ثقته ويتجولون في القصر، وكانوا من أهم مستشاريه، وفي نفس الوقت كان الحيثيون يغيرون على بلاد المملكة وسقطت واحدة بعد الأخرى، ولم يستمع الملك لأصوات حكام الأقاليم المخلصين له، من وقت كبير وهم يحذرونه من الغزو الحيثي.

افتقدت مصر في هذا الوقت لملك محارب قوي لصد العدوان وانقاذ الأقاليم التابعة للمملكة، ولكن ماذا كان يفعل إخناتون؟ لم يعطِ للأمر بالًا واهتمامًا بل أخذ في التعبد ويحلم.

وعندما أفاق وجد أن كل الأقاليم التي أخذها أجداده بالحروب واحتفظت بها قرونًا كثيرة بالحكم العادل والقوة أصبحت ملكًا لأعداء مصر.

وهنا تدور عدة تساؤلات في فلسفة التوحيد عند إخناتون:

- هل الملك آمن حقًا بإله الحب والسلام الذي لا يستطيع معه أن يأمر أتباعه بالذهاب إلى الحرب وإنقاذ الأقاليم؟
- هل انشغل إخناتون بأمر دينه، والذي صور له أن فقد أقاليم مصر شيء هين وليس بالأهمية؟
- لماذا فشل الفرعون إخناتون كحاكم قوي؟
- وبدأت الفتنة وثار الشعب، بالذات الذين لم يؤمنوا بإله فرعون ورجعوا إلى إلههم آمون رع.
- أما الحاقدون من كهنة آمون والذين فقدوا سلطتهم ونفوذهم ومراكزهم وغلق معابدهم وضياع أجورهم، فكانوا ينشرون الأخبار السيئة ويزيدون فيها في جميع البلاد.

وفقد إخناتون كل أمل وأدرك أن الشعب لم يتقبل دينه الجديد، وأنهم كانوا ينتظرون سقوطه وموته بفارغ الصبر، فأصبح إخناتون محطمًا ومات يائسًا من كل شيء (هبة النيل: تاريخ مصر القديمة: انيدلامونت ميدوكروفت، ١٩٣٧).

فلسفة آتون المدينة الجديدة

أعدت آخت آتون أو إخناتون، وهي تل العمارنة الآن بمحافظة المنيا:

- بنيت لتكون أشعة الشمس تلمس كل شيء.
- لا وجود لأسقف تغطى المعابد أو الطرق.
- لا توجد صالات كبيررة ذات أعمدة مظللة.
- لا توجد حجرات معتمة.
- بنى إخناتون قصره في الجهة الغربية من النيل مع المقابر.
- نقل إخناتون كل ما هو جميل ومتقدم من طيبة إلى آخت آتون الجديدة.
- أراد أن تكون عاصمة لا مثيل لها.
- انتقل إليها كبار الموظفين بالدولة والتجار ليقيموا فيها.
- آخت آتون أعدت لتكون المدينة الفاضلة.
- تدفقت إليها ميزانية الإمبرطورية المصرية.
- تدفقت عليها كل الخيرات والنعم.
- التقديس الأبدى لآتون.
- اختيار المدينة لم يأتِ عشوائيًا.
- أبحر إليها الملك سابقًا وعاينها.
- اعتبرها بقعة طاهرة من الأرض لم تدنس بعبادة آمون.
- وضعها الجغرافي مميز، حيث تحيط بها الهضبة الجيرية الأيوسينية على جانبى نهر النيل.
- تحدها من الغرب أراضي السهل الفيضي، ما أتاح للزراع زراعة الحدائق والأشجار المثمرة.
- وجود الهضبة الجيرية الأيوسينية على الجانب الشرقي، وتقطعها بالفوالق أو الصدوع، أتاح للبنائين في آخت آمون نحت المقابر الملكية ولمسافة وعمق قد يصل إلى ١٥-٢٠م على المنحدرات الجبلية (أنور محمود عبد الواحد، ١٩٩٢).

التأمل Meditation

بتعريف بسيط: التأمل هو تطهير النفس ونقاء الروح.

تحضرني واقعة ألمت بي، وهي ارتفاع ضغط الدم، فقمت بزيارة الطبيب، وكان طبيبًا مخضرمًا كبير السن ويعمل في مستشفى خاص، قاس لي الضغط وكتب لي أقراصًا لآخذها، ولكن في نهاية الكشف أعطاني نصيحة قال لي: اجلس في الفراندة أو البلكونة، وانظر طويلًا في السماء ولا تفكر في شيء آخر، غُص في أعماق السماء وأغمض عينيك قليلًا وتخيل نفسك في مركبة فضائية تسبح في السماء أو تغوص في البحر، انظر إلى الكواكب والنجوم في السماء، تأملهم كما تأملهم سيدنا إبراهيم أو حتى أي عالم فلك أو الناس الذين عبدوا النجوم والكواكب، وتأمل كما تأمل إخناتون في النباتات وخلقها في الحيوانات في الأسماك في مياه البحر أو مياه النهر، انظر طويلًا طويلًا.

دع أي خلافات ومشاكل دنيوية جانبًا، عِش مع نفسك ولو لمدة قصيرة. الناس قبل المدينة كانت السماء مفتوحة أمامهم يلاحظون ويدققون في كل طارئ يظهر في السماء، في شروق الشمس وفي غروبها طوال العام، ومن هنا أدركوا كيف يبنوا المعابد الملكية وتسقط أشعة الشمس على تمثال الملك رمسيس مرتين في العالم يوم تتويجه ويوم ميلاده.

أذكر عندما هممت بالخروج في دراسة ميدانية في التسعينات من القرن الماضي، وكانت أول مرة في حياتي أغزو الصحراء الغربية، فمررت بالواحات البحرية والفرافرة والداخلة والخارجة. تعاملت مع الناس هناك فوجدت أن الناس في هدوء وسكينة وطول بال جدًا يكاد تستشيط غيظًا منه، وعندما تطلب من أحد العمال معك طلبًا يغيب لتلبية طلبك كأنه يقول في نفسه: ما الذي وراءنا؟ قدامنا وقت كبير، من وجهة نظره، لا ضرورة للاستعجال لماذا كانت الواحات ما زالت بكرًا، يعيش الناس في بيوت بنيت من الطين والأحجار الجيرية المحلية المخلوطة

بقش، وعبارة عن فسحة كبيرة في المنتصف والحجرات على الجناب والحمام تطلعه بسلم، وتستطيع أن ترى مجرتنا درب التبانة من داخل هذه الفسحة فترى النجوم والأبراج السماوية والقمر وأطواره واحتراق الشهب ونزول النيازك، تغوص في أعماق الغروب والشفق وتغوص في أعماق الشروق والشفق، وتشرق الشمس خلف الجبال، ويظهر القمر في ظلمة الليل وينير لسكان الواحة (الكهرباء كانت من الساعة ٨ مساءً حتى الساعة ١٢ مساءً فقط). تأخذ الحكمة من أفواه كبار الواحة، أي الطاعنين في السن، وبالرغم من كبر سنهم إلا أنهم كانوا في صحة جيدة غير بدينيين أو سُمان، حادي البصر، مقتفي أثر، وكانوا يهتدون بالنجوم في الليل في سفرهم إلى البداري (أسيوط)، هادئو الطباع، ذو أخلاق رفيعة هي سمة أهل الواحات، بسطاء جدًا غير متكبرين، نزعت من صدورهم كل أشكال الحقد والغل (كانوا)، ساعد على هذا عدم وجود طريق مع البداري، وكان الطريق إليهم من القاهرة غير مسفلت، فلم يغرِ الناس بالذهاب إليهم إلا الدراسات الحقلية من أمثالنا مستخدمين سيارات ذات دفع رباعي، ساهم كل ذلك في إضفاء الهدوء والرضا والسكينة والأخلاق والتفكر والتأمل الذي طهر أنفسهم ونقى أرواحهم، فقد ترقى ساكنو الواحات في العبادات، كيف؟

الأحجار المقدسة

أحجار مصر

لعب تقدم البحر المتوسط وانحساره الدور الأكبر في تواجد أحجار مصر المقدسة التي استخدمها المصري القديم في حياته الدنيا وحياته الأبدية في الآخرة.

جيولوجية مصر العبقرية

وسوف نركز هنا على ترسيب البحر لرواسب الطين الشهيرة، والتي تحيط بالدلتا وسميت "طين الإسنا"، وقد اكتُشفت في العصر الباليوسيني Paleocene، وهي فوق سطح البحر.
وتقدم البحر بارتفاع أكثر من ١٠٠ في منسوبه، ووصل إلى أسوان كان من نتيجته ترسيب الهضاب الجيرية التي تحيط بنهر النيل من الجانبين الشرق والغرب، ويبلغ ارتفاعها أكثر من ١٠٠ متر، ويتميز الحجر الجيري الذي رسبه البحر خلال وصف العصر الأيوسين Eocene، أي منذ ما يقرب من أكثر من ٨٠ مليون سنة.
وتتميز الأحجار الطينية بأنها دقيقة الحبيبات ولا يزيد قطرها عت ١٦/١ مم، وتنتج من تفتت وتحلل معادن السيليكات الغنية بالألومنيوم مثل الفلسبارات لتسمى "المعادن الطينية"، ومنها الغرين أو الطمى Silt (طمي النيل)، وتتراوح قطر حبيباته من ١٦/١ مم – ٢٥٦/١ مم، أما الطين Clay فحبيباته أقل من ٢٥٦/١ مم، وتتماسك فيما بينها نتيجة فقدانها محتوياتها المائية، وذلك بتأثير حمل الرواسب التي تعلوها.
ومن ألوان الأحجار الطينية التي تظهر بها اللون الأسود أو الأحمر أو الأصفر أو الأخضر.نتيجة تواجدات للشوائب مثل المواد العضوية المتحللة أو أكاسيد الحديد أو المنجنيز.

ومن أهم أنواع الأحجار الطينية:

الطين أو الصلصال Clay، ويحتوي على كمية من الماء تصل إلى ١٥%، لذا فهو قابل للتشكل.
الحجر الطيني Mudstone، عندما يفقد الجزء الأكبر من الماء المتواجد في الطين إثر جفاف أو حفظ عليه، النتيجة أنه يتصلد ويفقد قابليته للتشكيل.

الطفل (الحجر الطيني الصفائحي) Shale:

مع زيادة الضغط على الحجر الطيني، يفقد كل الماء ويتصلد في هيئة طبقات رقيقة ويكتسب خاصية التشقق الصخري، وذلك لاحتوائه على معادن ذات صفة صفائحية مثل معدن الميكا، ويسمى الطين الناتج "الطين الصفائحي" أو "طفل"، وقد يغلب عليه اللون الأسود لاحتوائه على شوائب عضوية ويسمى "الطفل الأسود".

الطين الحراري Fire clay:

وهو الطين الذي لا يتواجد به الجيد والقلويات والحديد، ولذا فهو يتحمل درجات الحرارة العالية ويقاوم الاحتراق.

المارل Marl:
ينتج المارل عندما تزيد نسبة تواجد كربونات الكالسيوم في الطين، فيسمى طين جيري أو مارل.

طمى وغرين النيل (حدوتة النيل):
نهر النيل نهر الخير يمر من منبعه في إثيوبيا لمصبه في مصر.حوالى ٦٠٠٠ ميل تقريبًا، نفس المسافة من القشرة الأرضية إلى جوف الأرض.
ويسقط حوالي ألف مليار متر مكعب من مياه الأمطار على هضبة الحبشة التي تتكون في معظمها من صخور فلسبارتية نارية.
تتفتت بسقوط الكمية الهائلة من المياه الأمطار عليها وتتفاعل المياه مع الفلسبارات (معادن سيليكات الألومنيوم)، وتتحول خلال رحلتها من المنبع إلى دول المصب إلى رواسب الغرينية والطينية غنية بسليكات الألومنيوم المائية والمواد العضوية، ولذا يعد النيل شريان الحياة لدول المصب لأنه يجلب لدول المصب فيضانات الحياة من المياه والتربة الزراعية، وهما فيهما الحياة والنماء والرخاء، دول المصب مصر والسودان.
تنتاب نهر النيل فترات من الجفاف عانت منها دول المصب، وهي دورات جفاف حددت سبع سنوات أو اثنين وعشرين سنة. ضاق خلالهما دول المصب وعانوا فيها أشد الفترات القاسية التي تمر بها بلاد.
مع الفيضانات النيلية ترسب الغرين والطين على جانبي نهر النيل مكونًا شرفات نهرية، أقدم الشرفات أعلاها ارتفاعًا وأبعدها عن نهر النيل وأحدثها وأقلها ارتفاعًا، وأقرب لمجرى نهر النيل وهي الأراضي الزراعية التي استغلها واستخدمها المصري القديم منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة، وهي التي ساهمت في حضارة المصريين.
وصل نهر النيل إلى مصر واتصل بأفرعه مثل السوباط والنيل الأزرق والأبيض في الجنوب منذ ما يقرب من مليون ونصف سنة خلال العصر البليستوسيني الأوسط Middle Pleistocened، وتقدر كمية المياه التي وصلت إلى مصر من منبعه إلى الآن حوالي خمسين تريليون متر مكعب من المياه العذبة شكلت نهر النيل وأفرع الدلتا السبعة التي كانت موجودة منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام.

الطين والزراعة والحضارة المصرية
يعتبر الطين في مصر القديمة مقدسًا لما فيه خير للمصري في زراعة أرضه كل عام بعدما يغطيها الفيضان، فيترك الغرين عليها والمواد العضوية ويغسل التربة القديمة.

الزراعة والحضارة

نشأة الزراعة في مصر

تربة مصر الخصبة

التربة هي النطاق السطحي من الأرض وخلالها ينمو النبات بجذوره الممتدة فيها باحثًا عن الغذاء والمياه، وما تخلف من بقايا لنباتات أو حيوانات تشكل وسطًا حيًا.

تكوين التربة المصرية في الوادي والدلتا

تتألف التربة المصرية في وادي النيل والدلتا المصرية من تراكمات لطمي النيل المكون من فتات الصخور النارية والمتحولة وحتى الرسوبية المكونة لهضبة الحبشة بإثيوبيا، بالإضافة إلى ما تنحته من صخور جوانب النهر وقاعه، وما ترسبه الرياح من رمال في مجرى النيل حينما يلامس الصحراء في النوبة.
ويتغير سمك التربة في الأجزاء المختلفة، فهي أكثر سمكًا في أطراف الدلتا الشمالية بمتوسط يبلغ ٩,٨٢ مترًا، وفي الجنوب بمتوسط ٦,٧ متر فقط (محمد صفي الدين وآخرين: دراسات في جغرافية مصر، ١٩).
تتألف التربة الطينية في مصر من غرين النيل الذي يحمله النهر ولم يتغير في تركيبه خلال العصر الهولوسيني، أي حوالي ١٠,٠٠٠ سنة أو يزيد.

مكوناته

ومصدر التربة الطمية المصرية أو الغرين هو البازلت البركاني والمكون من معادن الحديد والمغنسيوم.
وتختلف مكونات التربة النباتية عن تربة الواحات المصرية في كون الأخيرة تربة غرينية رملية ملحية تكونت نتيجة جفاف البحيرات التي كانت إثر هطول الأمطار الغزيرة على الصحراء الغربية، ولما تعرضت للجفاف تركت خلفها هذه الرواسب التي تسمى "بلايا"، وفيها قد ترتفع نسبة الطمي إلى أكثر من ٥٠%، بينما تتراوح النسبة المئوية للطين النيلي بين ٥٥ - ٦٤%، والسلت ٢٥ - ٣٠%- الرمل الناعم ٦ -١٧%، ويمثل ثاني أكسيد السيليكون أكثر من ٥٠%، وأكسيد الألومنيوم حوالي ١٧%، وأكسيد الحديد حوالي ١٠%، وأكاسيد الكالسيوم والمغنسيوم والبوتاسيوم والصوديوم والتيتانيوم والمنجنيز ثم الفوسفات والأزوت حوالي ١٢ - ١٣%، والمادة العضوية ٤,٥% (سيد مرعى، الزراعة المصرية، ١٩٧٠).
ظهرت الزراعة في عصر ما قبل الأسرات، أي أكثر من أربعة آلاف سنة في الصحراء، وشكل هذا الطين جزءًا أصيلًا من حيث زراعته وعمل الآنية الطينية التي شكلت حضارة في جنوب الصحراء الغربية، وهي "Nabt playa" أو "حضارة نبتة".

الطين خامة مقدسة

وتصل المساحة الكلية لطمي النيل وتكوينات البلاسيتوسين والهولوسين إلى ١٦٥٠٠٠ كيلو متر مربع من مساحة مصر.
قدرت إضافات الترسيبات السنوية من طمي النيل نتيجة الفيضان بحوالي ٠,٩ جم، بما يوازي ٨ أطنان/الفدان، ويتدرج السمك للرواسب النهرية من حوالى ٦,٧ م في الجنوب إلى ١١,٢ م في الشمال (سيد مرعى، ١٩٧٠) تكونت على مدار العشرة آلاف سنة الماضية.

أحجار التلات:

١- أحجار مناظرها متعددة.

٢- حجمها قياسي.

٣- وزنها صغير.

٤- معروفة تاريخيًا.

٥- أضفت على البناء كفاءة أكثر.

نجد أن الطفل الملك وهو لا يزال في الحادية عشرة من عمره يتزوج نفرتيتي.

المسلة والمئذنة والكاتدرائية

المسلة المصرية، مثال مسلة المطرية، وهي أقدم مسلة بالعالم، تشبه لحد كبير قلم الرصاص، تشكلت من الجرانيت؛ جرانيت أسوان، بالتحديد الوردي، الأسرة ١٢- ١٩٤٠ ق. م، وارتفاعها ٢٠,٤ م وتزن ١٢١ طنا، ومن نفس المنطقة مسلة الملك تيتي من الأسرة ٦، ومسلة تحتمس الثالث من الأسرة ١٨، ومسلة سيتي الأول من الأسرة ١٩، وتعتبر المسلة رمز الإله "رع" إله الشمس.

وحرص المصري النحات القديم على أن ينتزع المسلة كما هي، بطولها الأكثر من ٢٠ م، كاملة من صخور الجرانيت من خلال وضع خشب مبلل على طول الفواصل الموجودة بالصخر من الناحيتين، وبالتالي يستطيع أن تجعلها ترمز إلى الواحد الأحد بشكلها الانسيابي وقمتها الهرمية الحادة، وهو ما خلدته العمارة الإسلامية والمسيحية في بناء المآذن والكاتدرائيات في الإشارة إلى الإله الواحد، كما لو كنت تشير بالسبابة إلى السماء معلنًا التوحيد.
ظهرت في وادي النيل حضارة من أقدم الحضارات في العالم، مصر هبة النيل وحضارتها تستند إلى البيئة الطبيعية وإلى الإنسان المصري، ولولا طمي ومياه النيل ما قامت هذه الحضارة ولا كان لها أثر في التاريخ.

حضارة مرمدة بني سلامة والفيوم

عرف أهالي مدينتي بني سلامة والفيوم الزراعة نحو عام ٥٥٠٠ ق. م (قبل الأسرات)، وهي تعد أول زراعة في التاريخ الإنساني وحضارته، وبدأ الإنسان يعيش بطريقة إنتاجية ويأكل مما زرعه بل ويستغله، مثل نباتات ورق البردي المائية، أقام منها الأكواخ وصناعة الحصير، بل وأخذوا يستزرعون النباتات التي تنمو طبيعيًا، وساعدهم على ذلك اعتدال المناخ والطمي وخصبه وتوافر المياه للري.

أقدم الحبوب المزروعة في وادي النيل القمح والشعير وجدت في آثار العصر الحجري، بالإضافة لزراعة الزيتون والتين والنخيل والخضر والبقول، وغرس الإنسان في وادي النيل بعض الأشجار المحلية كالجميز والسنط.

عرف سكان الوادي البقر ذا القرون الطويلة منذ أوائل العصر الحجري الحديث، وعرفوا الأغنام واستأنسوا الحمار ثم الجمل (مرعي، ١٩٧٠).

وعرفوا الأدوات والآلات الزراعية وموجود منها حتى اليوم الفأس الحجري (عصر ما قبل الأسرات)، ثم المحراث والمنجل الحجري والشادوف، وبالتالي تحولت القبائل البشرية من الصيد والترحال إلى الزراعة والاستقرار.

نشأت الحضارة على ضفاف مجرى النيل العظيم، وأبحرت السفن من الجنوب إلى الشمال بسفن شراعية أضافت لنهر النيل وظيفة أخرى كشريان للمواصلات.

أصل الحياة

أثر الزرع الأخضر الذي ينمو في الأرض السوداء على التفكير في أصل الحياة لدى المصريين، ويعزى هذا التفكير إلى تحولهم من حياة الصيد إلى حياة الرعي إلى حياة الزراعة، وأثر هذا التفكير في عقيدتهم الدينية. وكان محور كفاحهم من أصل البقاء والزراعة من خلال الإنبات، من بذر بذرة تنمو وتخضر وتجني الثمار، ومن الثمار أخذ حبوبًا أخرى يزرعها وتتكرر هذه العملية، فتكررت معجزة الحياة، وفكر في هذه الحياة التي تتجدد والتي لا تموت. أعتقد أن هذا الشيء الذي لم يمت هو الإله، وأن أوزوريس هو روح هذه الحياة الخضراء التي تنمو من الأرض.

رأى المصريون هذه النباتات المخضرة تموت كل عام وتفارق الحياة ولكنها تعود مرة أخرى حية مخضرة. رأى المصريون في أوزوريس الأرض السوداء التي تخرج النبات الأخضر فرسموا سنابل الحياة وهي تنبت من جسده، ونراها اليوم في آثارهم وفي عبارة يقول فيها أوزوريس عن نفسه: "أنا أوزوريس أعيش كحبة القمح وأنبت كحبة من القمح".

كانت إيزيس تُعتبر جسد الأرض الخصبة، الذي يتلقى الخصب من النيل، وهذه هي مصر العذراء التي تنمو كل عام بأنفاس أوزوريس، وهي العنصر الأنثوي الذي يقبل التلقيح، وهي التي أرشدت المصري إلى ابتكار أدوات الزراعة وعلمتهم الصناعات كالخبز، والثياب، وأشياء النساء المنزلية.

الإله حابي يمثل نهر النيل في الفيضان، واعتقد المصريون أن الإله نبر إله البيوب، وآلهة الحقول كانت سخت، وآلهة الحصاد رنوتت، أي المرضع، فبشائر الفيضان لدى المصريين تشبه لبن الرضيع للحياة المصرية.
ومن أهم مظاهر الحياة والابتهاج لدى المصريين؛ أعيادهم في مواسم الزراعة مثل وفاء النيل والحصاد والنيروز وشم النسيم.

أرقام في علم الفلك للتفكر

عمر الكون ١٣,٦ مليار سنة.

عمر الشمس ١٠ بلايين سنة.

قضت الشمس كنجم من عمرها ٤,٥ – ٥ بلايين سنة.

يحتوي الكون على ٢ تريليون مجرة.

مجرتنا طريق اللبن:

- تحتوي على ٢٠٠ بليون نجم.
- عدد المجموعات النجمية (الأبراج) = ٨٨ كوكبة أو برجًا.
- تدور الشمس والمجموعة الشمسية حول مركز المجرة بسرعة ٢٥٠كم/ث.
- تقطع الشمس مسافة ٢٢ مليون كم يوميًا.
- تكمل الشمس دورتها حول مركز المجرة في ٢٠٠ مليون سنة.
- لم تدر الشمس في عمرها سوى ٢٥ دورة فقط حول مركز المجرة.
- تبعد الشمس عن مركز المجرة حوالى ٣٠,٠٠٠ سنة ضوئية، أي ٩,٥ مليون مليون كم × ٣٠,٠٠٠ كم.

عمر الأرض = ٤,٥ بليون سنة

- تدور الأرض حول محورها من الغرب للشرق بسرعة ٤٦٥ متر/ث عند خط الاستواء، وتتم دورتها في ٢٤ ساعة.
- تبعد الأرض عن الشمس ١٥٠ مليون كم يقطعها الضوء في ٨,٤ ق.
- يبعد النجم القطبي عنا حوالي ٦٥٠ سنة ضوئية، أي ٩,٥ مليون مليون كم.
- يقدر قطر النجم القطبي بمائة مرة مثل قطر الشمس، أي ١٠٠× مليون و٤٠٠ ألف كيلو متر = مليون كم.
- يعتبر من النجوم العملاقة = ١٠ [١٣] كم.
- تبلغ قوة إشعاع النجم القطبي مثل قوة إشعاع الشمس خمسة آلاف مرة.
- السحب الماجلانية الكبيرة تبعد عن الأرض ١٧٩,٠٠٠ سنة ضوئية، وهي تعد من أقرب المجرات إلينا، وتحتوي على أكثر من بليون نجم.
- تبعد المجرة البيضاوية ١٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية من أحد جوانبها للجانب الآخر.

قائمة المراجع

- إبراهيم يحيى (٢٠٢١): علم الفلك للهواة، ٤٧٧ صفحة.
- أشرف لطيف تادرس (١٩٩٦): الفضاء ذلك العلم المجهول – وزارة البحث العلمي. سلسلة تبسيط العلوم.
- أنور محمود عبد الواحد (ترجمة) (١٩٩٢): جولة في مدينة فرعونية، دار الشروق.
- إيمان الجمال (٢٠٢٠): تجليات الفن المصرى القديم في المعابد والمقابر، ١٨٨ صفحة.
- بركات محمد مراد (٢٠٠٢): الفلسفة الإسلامية، دار الفردوس للطباعة.
- بركات محمد مراد (٢٠٠٦): دراسات فلسفية لمعتقدات إسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية.
- بركات محمد مراد الكندي (١٩٩٠): رائد الفلسفة العربية الإسلامية، الطبعة الأولى، الصدر لخدمات الطباعة.
- جان بيار فردي Jean pierre Verdet (كتاب تاريخ علم الفلك القديم والكلاسيكي).
- حسن سليم (٢٠٢١): الفن الآتوني: دراسة مقارنة بالمدارس الفنية الأخرى هي نهاية الدولة الحديثة، ١٢٨ صفحة.
- رسالة اليونسكو (١٩٩٥): الشمس: أساطير قديمة، التكنولوجيات الحديثة.
- زين العابدين متولي (١٩٩٧): المجموعة الشمسية واحتمالات الحياة عليها، مركز جامعة القاهرة للطباعة والنشر.
- سمير عوض، عبد المنعم محمود (٢٠٠٧) : مقدمة في علم الرسوبيات، مكتبة الأنجلو المصرية إيداع رقم ١٠٨٢٠.
- شريف شعبان (٢٠٢١): النبي المفقود إخناتون.
- عادل محمد نصر الدين (٢٠٢٤): الأرنب في مصر القديمة، ١٩٩ صفحة.
- عبد المنعم أحمد محمود (٢٠١٨): علم الفلك، رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١١١٩٥.
- عبد المنعم أحمد محمود (٢٠١٨): المعادن وأحجار الزينة، رقم إيداع بدار الكتب ١١١٩٣.
- عبد المنعم محمود (٢٠٠٧)، مقدمة في علوم الأرض والفضاء، مكتبة الأنجلو المصرية، إيداع رقم ١٠٨٢٠.

- عبد الرحمن عثمان (١٩٧٦): أسس الجيولوجيا – الجزء الأول – كلية العلوم- جامعة الإسكندرية.
- علي فخري (ترجمة لانيدلامونت ميدوكروفت(١٩٣٧): هبة النيل، تاريخ مصر القديمة.
- عماد الدين أبي الفدا، إسماعيل الدمشقي (٢٠٠٥): قصص الأنبياء، مكتبة الصفا.
- محمد جمال الدين مختار (١٩٧٦): مصادر التاريخ الفرعوني. (تاريخ الحضارة).
- محمد علي كمال الدين (١٩٥٩): الشرق الأوسط في موكب الحضارة، الجزء الأول: الحضارة المصرية القديمة، مكتبة النهضة المصرية.
- مقدمة في الفلسفة الإسلامية. قسم الاجتماع. كلية التربية. جامعة عين شمس.

المواقع الإلكترونية:

https//arz.wikipedia.org

- https://www.islamweb.net
- https://ar.wikipedia.org
- jean paul Sartre. Existentialism (n.d)
- Le maître (1927) A science odyssey Boston.
- Le maître, A. G. 1931 Contribution a British Association discussion on the Evolution of the universe Nature 128(3234).
- Mark, A. Garlick (2002) The expanding universe, essential science. 71p.
- Said, R. (1967) Geology of Egypt.
- Abdelmoneim, M (201) A guide to the Egyptian Sediments, ISBN978-620-2-26948-3
- http://www.editiors.ue.comlcatatolog/details//...la-guide-to-the-Egyptian-sediment.
- Lemaitre (1927) Ascience. Boston. Big Bang theory is introduced.

المحتويات

تمهيد: ٣
مقدمة الكتاب ٥
فكر التوحيد ٩
ظهور التوحيد على الأرض ١١
بزوغ الحضارات القديمة ١٤
أولاد آدم والتوحيد ١٦
نوح عليه السلام ١٨
التفكر في خلق السماء والأرض ٢٠
الانفجار العظيم Big Bang theory ٢٢
مولد Big bang ٢٤
الأحداث الزمنية الكونية (عبد المنعم محمود – علم الفلك ٢٠٠٢) ٢٦
نهاية الكون ٢٩
فكرة الإشراك.. من أين جاءت؟ ٣١
العقل ٣٤
ما هو الدين الحنيف؟ ٣٨
التفرد Singularity (الواحد في كل مخلوقاته) ٤٠
التفكر والصحراء ٤٢
إبراهيم عليه السلام فيلسوفًا ٤٦
فكرة الارتقاء ٥١
أول مناظرة فلسفية في التاريخ ٥٣
خلق الله آدم من تراب (طين) ٥٧
فلسفة التوحيد عند إخناتون ٦٠

ديانات المصرى القديم ٦٢
إله الشمس "رع" ٦٥
عبادة أوزوريس ٦٧
آمون ٦٩
عبادة آمون في الدولة الحديثة ٧١
الكاهن الأعظم والملك ٧٣
الكهوف والتوحيد ٧٦
عبادة آتون الواحد الأحد ٧٩
عبادة آتون ٨١
النهاية لآتون ٨٥
العبادت الأخرى للمصريين القدماء ٨٧
شخصية إخناتون ٨٩
نقطة التحول Turning point ٩١
نفرتيتي ٩٣
إعلان الحرب على كهنة آمون ٩٥
غضب كهنة آمون ٩٧
أفول طيبة ٩٩
فلسفة آتون المدينة الجديدة ١٠٢
التأمل Meditation ١٠٤
الأحجار المقدسة ١٠٧
الزراعة والحضارة ١١٠
أرقام في علم الفلك للتفكر ١١٥
قائمة المراجع ١١٧

نبذة عن المؤلف

عبد المنعم أحمد محمود

أستاذ بكلية التربية قسم العلوم البيولوجية والجيولوجية جامعة عين شمس

التخصص العام: "رسوبيات – جيولوجيا- قسم الجيولوجيا- كلية العلوم- جامعة إسكندرية (١٩٧٩)"

التخصص الدقيق: جيولوجيا الآثار